أضواء على الاستعمار الجديد

د. كمال غالي

١ – منذ أقل من عشرين عاماً دخلت عبارة « الاستعمار الجديد » في المفردات اليومية واذا تصفحنا برامج حركات التحرر الوطني في العالم نجد فيها جميعاً ان من بين أهدافها الرئيسية النضال ضد الامبريالية بجميع اشكالها ، وبخاصة « الاستعمار الجديد » . فما معنى « الاستعمار الجديد » ؟ ولم وصف الاستعمار بالجديد ؟ وهل هو جديد حقاً ؟ .

لن نستطيع في هذه العجالة ان نحيط بهذه الظاهرة ونحلل جميع مقوماتها والظاهرات التي تتجلى بها ، وحسبنا ان نلقي اضواء خاطفة على بعض جوانبها الاساسية بما يمكننا من تكوين فكرة عامة محددة عنها . ولو اننا رجعنا الى معاجم اللغة لوجدنا ان : أعمر المكان ، واستعمر فيه ، انما تعني : جعله

بعمره ، و « أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها » : أي أذن لكم في عمارتها ، وجعلكم عمارها . ومدلول لفظة الاستعمار لايختلف كثيراً في جوهره عن مدلولها القديم ، سوى ان فعل استعمر يتعدى الى الارض أو المكان ، فنقول استعمرت الصهيونية فلسطين . ولو أريد اتباع المعجمات حرفياً لوجب أن يقال : استعمرت الصهيونية الصهيونيين في فلسطين . وقد شاع الاصطلاح الحديث وانتشر .

والاستعمار ، بهذا المعنى ، يدل على ظاهرة محددة ، هي ماتسميه اليوم : الاستعمار التقليدي أو « الكولونيالية » ، وهي تفترض وجود مستعمِر ومستعمَر تقوم بينهما علاقة تبعية – فأداة الاستعمار التسلط والقهر ، ووسيلته القوة ، لاخضاع الشعب المستعمر وأرضه لتحكمه السياسي ، واستعماره السكاني ، واستغلاله الاقتصادي . ويطلق لينين على هذا الاستعمار في مرحلة معينة من مراحل التطور التاريخي : « الامبريالية » ، عندما يكون محركه الأساسي الرأسمالية الاحتكارية .

٢ – وقد استطاعت اوربا الغربية ، في عهد الرأسمالية التجارية ، وبخاصة في عهدي الرأسمالية الصناعية والمالية ، ان تفيد من تخلف وجود البنى الاقتصادية والاجتماعية لدى الشعوب الاخرى ، ومن تفككها وضعفها البشري والعسكري ففرضت عليها استعمارها . وقد أدى هذا الاستعمار طوراً الى استئصال السكان الأصليين في بلاد كثيرة والى استيطانها من مهاجرين أوروبيين ، والى امتزاج بين المهاجرين الغزاة والشعوب الوطنية احياناً اخرى ، أما المستعمرات الاخرى فنهبت خيراتها وهدمت فيها البنى الاقتصادية والاجتماعية التقليدية ، ووجه تطورها بحيث ينمو اقتصادها وفق حاجات البلد المتقدم المستعمر . فغدت سوقاً لتصريف

منتجات الدولة المستعمرة ومصدراً للمواد الاولية بأسعار بخسة ، وربطت ربطاً محكماً بالدولة المتبوعة بشبكة من العلاقات بما فيها النقد والمصارف والنقل ، بحيث قيل بحق : « ان اوربا الغربية ، والولايات المتحدة الامريكية من بعدها ، نظمت الجغرافية الاقتصادية للكرة الارضية على هواها ، ووفق مصالحها » .

٣ – وكان من نتائج الحرب العالمية الثانية ، وتصاعد موجة التحرر الوطني ، انهيار هذا النظام الاستعماري ، الا في نقاط محدودة في العالم في مقدمتها فلسطين ، فتهاوت الامبراطوريات الاستعمارية : كانت مساحة الامبراطورية البريطانية ١٤٠ ضعف مساحة انجلترة ، ومساحة الامبراطورية الهولندية ٦٠ ضعف مساحة هولنده ، ومساحة الامبراطورية الفرنسية عشرين ضعف مساحة فرنسا . وأصبحت المستعمرات وما كان في حكمها دولاً مستقلة ذات سيادة .

ويعكس تركيب هيئة الأمم المتحدة هذه الظاهرة بوضوح : ففي عام ١٩٤٦ لم يكن في المنظمة الدولية سوى خمس عشرة دولة افريقية وآسيوية من أصل ٥١ عضواً ، وارتفع العدد الى اكثر من ستين دولة افريقية وأسيوية من أصل ١١٠ في عام ١٩٦٢ ، وهي الآن تقارب سبعين دولة ، تشكل ، اذا أضفنا اليها دول امريكا اللاتينية ، اكثر من ثلاثة أرباع هيئة الأمم المتحدة .

٤ – هل يمكن للدول المستعمرة الرأسمالية ان تنظر بعين الرضا والارتياح الى استقلال مستعمراتها السابقة استقلالا حقيقياً ، بمعنى ان يكون لها حرية العمل على هدم روابط التبعية الاقتصادية التي تشدها الى عجلة الاقتصاد المتقدم ، وان تعمل على بناء قاعدة اقتصادية وطنية ؟ لئن رضيت الدول المستعمرة ، في حالات كثيرة ، بمنح مستعمراتها الاستقلال السياسي ، فلأن أهدافها من الاستعمار كانت

قد تحققت قبل هذا الاستقلال : اذ ربطت ، كما اشرنا من قبل ، في ظل سيطرتها موارد المستعمرات واقتصادها ربطا وثيقا بالسوق الرأسمالية العالمية . ولئن كان طبيعيـــاً أن تحاول المستعمرات السابقة التحرر من الاستقلال وتحقيق تنمية اقتصادية سوية توجه لخدمة شعبها والتقدم البشري ، فان من طبيعة الاشياء ان تحاول الدول الرأسمالية الحفاظ على روابط التبعية الاقتصادية من خلال الحفاظ شكلياً على مظاهر الاستقلال السياسي ، اي دون احتلال مباشر . هذه الظاهرة تكون جوهر ما يطلق عليه « **الاستعمار الجديد** » فما دام التحكم الاستعماري الكامل مستحيلا عملياً في الظروف الدولية الراهنة ، فلابد للدول الرأسمالية ، حفاظاً على نمط حياتها ومعدل نموها الاقتصادي ، من أن تستخدم لبلوغ اهدافها وسائل أخرى ، بعضها تقليدي ، وبعضها الآخر جديد ويصف نكروما ، الرئيس الغاني الذي أطـــاح به الاستعمار الجديد ، في كتابه نشر بعنوان : « الاستعمار الجديد آخر مراحل الامبريالية » ، جوهر هذا الاستعمار بقوله : « ان الدول الدائرة في فلك الاستعمار الجديد مستقلة نظرياً ، وتملـــك جميع الاختصاصات والحقوق الدولية ، الا انها تخضع ، في الواقع ، لتبعية اقتصادية ، وسياستها تخطط خارج حدودها » .

٥ - ان تفهم ظاهرة « **الاستعمار الجديد** » هذه يقتضينا القـــاء أضواء مريعة على السياق التاريخي الذي يجري في صميمه هذا الصراع بين النزوع الى التحرر الكامل ونزعة التسلط ، وعلى نوع الارتباط والتبعية القائمين بين طرفي النزاع ، وعلى بنية النظام الرأسمالي الراهن ، والوسائل التي يتوسل بها لبلوغ غاياته .

٦ - لقد أدت الحرب العالمية الثانية الى تغييرات كبيرة في المسرح العالمي وفي استراتيجية الدول الاستعمارية . فقبل الحرب العالمية الأولى كان

الصراع يجري بين الدول العظمى لتوسيع النظام الامبريالي بحيث يشمل الكرة الارضية كلها، او لاعادة توزيع الأرض ومناطق النفوذ بين هذه الدول، تبعاً لتغير ميزان القوى بينها. وبعد الحرب العالمية الأولى وقيام الاتحاد السوفياتي كان الصراع يستهدف استرداد الجزء الذي خرج عن النظام الامبريالي، ومنع الآخرين من الاقتداء به. أما المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية فقد شهدت انفراط النظام الامبريالي التقليدي، وتفككا خطيراً في السوق الرأسمالية نتيجة توسع العالم الاشتراكي وامتداده إلى اوربا الوسطى والشرقية وإلى الصين، وانتظام ثلث سكان العالم في إهابه، وخطر تقلص جديد في السوق الرأسمالية بسبب ثورات التحرر الوطني، ووصول الاتحاد السوفيتي الى السلاح الذري وقيام توازن الرعب النووي فانقسم العالم الى مناطق نفوذ بين العالمين الاشتراكي والرأسمالي، واصبح هدف الدول الرأسمالية الحفاظ على ماهو موجود، اي الحفاظ على النظام الرأسمالي ذاته، وحماية حدود السوق الرأسمالية بالحيلولة دون خروج البلاد المستعمرة السابقة، ومايسمى بلدان العالم الثالث، او البلدان المتخلفة، عن اطار هذه السوق. ومع ان هذا الهدف المشترك لايعني الغاء التنافس بين الدول الكبرى الرأسمالية، الا أنه كان العامل المحرك الرئيسي للاحداث منذ الحرب العالمية الثانية بسبب التهديد المباشر المتنامي الذي يتعرض له النظام الرأسمالي، وبسبب المزيد من الوحدة التي تحققت بين الدول الرأسمالية، وهي وحدة ترتد لأسباب عديدة اهمها الهيمنة الامريكية.

وهذه الهيمنة، هذا الدور القيـادي الذي مارسته الولايات المتحدة الامريكية منذ الحرب العالمية الثانية، أمر جديد هو أيضاً. فقد كانت العمليات السياسية والعسكرية تجري في النظـام الرأسمالي السابق للحرب وفق اسلوب التكتل. اذ يتكتل عدد من الدول عن طريق تحقيق تفاهم فيما بينها يقوم على

تعليق المصالح المتنافسة بصورة مؤقتة بسبب الحاجة الى دفاع او هجوم موحد ضد كتلة اخرى . وكان تركيب هذه الكتل يتغير ويتبدل وفقاً لمقتضيات الظروف . أما بعد الحرب فقد كانت الظاهرة الجديدة ان الولايات المتحدة أخذت على عاتقها الهيمنة على النظام الامبريالي كله . وقد اتيح لها بسبب قوتها الاقتصادية والعسكرية المتنامية وانهيــــار قوى منافسيها من كبريات الدول الرأسمالية بسبب الحرب ، الفرصة والقدرة على تنظيم وقيادة النظام الامبريالي في هذا العصر . وفي هـــذا يقول روستو « لقد كان تاريخ مابعد الحرب سلسلة من اعمال الاستيلاء على مواقـــع الأمن التي كانت في حوزة بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا . »

٧ ـ ولنحاول الآن أن نحدد بصورة عاجلة ضمن اطار السوق العالميـــة الرأسمالية مدى حاجة الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة الى بعض الموارد الاقتصادية المتوفرة في البلدان المتخلفة ، او بلدان العالم الثالث ، وبصورة عامة البلدان التي كانت مستعمرة في السابق ونالت استقلالها حديثاً .

٨ ـ ان الاقتصاد الرأسمالي الاوروبي يعتمد اعتماداً كلياً ، كما يعتمـــد الاقتصادي الامريكي نسبياً ، على الطاقة المستمدة من النفط ، وستستمر هـذه الحاجة لسنوات طويلة ، كما ان التوسع الاقتصادي العظيم في البلاد الرأسماليـــة يرتكز على قاعدة تتألف من صناعة التعدين الحديدي وصناعات التعدين الاخرى ، فبالنسبة للحديد تعتمد البلدان الاوربية بنسبة لا تقل عن ثلث حاجاتها ، على بلدان العالم الثالث ، وتتجه هذه الحاجة الى التزايد باطراد ، كما ان هـذه البلدان رهينة الامداد الخارجي على نحو يكاد يكون كلياً من أجل المواد التي تتفـــاقم الحاجة اليها كالمنغنيز والكروم والكوبالت والالمنيوم والنحاس والقصدير والاورانيوم

وسوى ذلك .. والأمر الجديد منذ عام ١٩٥٠ تغير الصورة المألوفة عن الولايات المتحدة الامريكية ، اذ اصبحت صناعتها الاستخراجية لا تفي بحاجاتها ، فضلاً عن ان التطور ادى الى صناعة سلع لا تتوفر موادها الاولية أصلا في هذه البلاد ، بحيث ان الصناعة الامريكية اصبحت تعتمد باكثر من ١٠ ٪ من مجموع انتاجها على مواد اولية مستوردة . ويتوقع الخبراء ان ترتفع هذه النسبة الى ٢٠ – ٢٥٪ في عام ١٩٧٥ . وبعبارة أخرى لم تعد الولايات المتحدة تكتفي ذاتياً كما كانت في السابق ، بل اصبحت في حاجة ماسة الى بلدان العالم الثالث . وتظهر حاجة الولايات المتحدة هذه اكثر وضوحاً من زاوية اخرى ، فمن اصل ٦٢ مادة يعتبر توفرها المستمر امراً اساسياً للاغراض العسكرية ، توجد ٣٨ مادة تحتاج الولايات المتحدة الى استيرادها بنسبة ٨٠ ٪ . ويعلق احد المسؤولين على ذلك : « ان خسران أية من هـــذه المواد ، من جراء وقوع عدوان ، من شأنه ان يعدل هزيمة عسكرية خطيرة » .

٩ – ومقابل ذلك انتساءل الآن كيف يتم اشباع هذه الحاجات ؟ ان التبادل بين الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة والاقتصاديات المتخلفة تحددت بنيته في ظل الاستعمار التقليدي : ففي كل مكان سيطر رأس المال الاجنبي على موارد الثروة الاساسية من انتاج زراعي ومواد معدنية وشجع محصولا رئيسيا يحتاجه الاقتصاد في موطنه الاصلي ويتوقف عليه استقرار الاقتصاد المتخلف ، بحيث تبدو البلاد المتخلفة من الناحية الاقتصادية وكأنها امتداد طبيعي للاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة ، بصرف النظر عن الحدود السياسية والسيادة الوطنية . ولهـــذا فإن التبادل بين الاقتصاديات الرأسمالية وبلدان العالم الثالث مايزال يعكس بأمانة ، في بنيته ، تقسيم العمل الدولي ذا الطابع الامبريالي ، اذ تتألف مبيعات العالم الثالث في تسعة اعشارها من المنتجات الاولية الخامية أو شبه الخامية ، في حين ان

مبيعات الاقتصاديات الرأسمالية تتألف في أربعة اخماسها من المنتجات المصنوعة . ويسود التبادل غير المتكافيء العلاقة بين المجموعتين ، على نحو ما كان عليه الأمر في ظل الاستعمار التقليدي . فبينما تتزايد اسعار المنتجات المصنوعة يلاحظ تدهور نسبي مستمر في اسعار المواد الاولية . وتشير الاحصاءات الى ان هذا التدهور بلغ في الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٦٥ - باستثناء النفط حوالي ١٧ ٪ ، كما تشير دراسات اخرى الى ان الانخفاض الفعلي في اسعار المواد الاولية بلغ حوالي ٣٠ ٪ لا ١٧ ٪ في الفترة ذاتها .

ومن الثابت ان اندماج الاقتصاديات المتخلفة - كمورد للمواد الأولية وسوق لتصريف المواد المصنوعة - في الاقتصاديات المتقدمة يؤدي بشكل عام الى استمرار التبعية للمراكز الاقتصادية المتقدمة ، وتكييف بنية الاقتصاديات المتخلفة باستمرار لحاجات التصدير الذي يتم بأسعار يقررها المشترون ، وهم في مركز المسيطر بحكم التفوق التقني والمركز الاحتكاري ، وهو ما سنشير اليه بتفصيل أوفى بعد قليل .

أن تحرر البلدان المتخلفة من هذه التبعية الاقتصادية ، بعملها على تحقيق تنمية اقتصادية سوية وتحقيق التصنيع والحصول على اسعار عادلة لمنتجاتها ، كل هذا يعني حرمان البلاد الرأسمالية من ارباح هائلة تنهبها من البلاد المتخلفة ، مما لابد ان ينعكس على معدل نموها الاقتصادي وازدهارها . وتشير الاحصاءات الى ان رأس المال المراد تصديره الى البلاد الرأسمالية بلغ بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٥ ثلاثة أضعاف رأس المال المصدر أصلا ، مع تضاعف قيمة الموجودات ، التي ارتفعت في امريكا اللاتينية من ٤٫٦ مليار دولار الى ١٠ مليارات ، وفي آسيا وأفريقيا ١٫٣ الى ٤٫٧ مليار دولار . وهذه الحقيقة تفسر لنا قول روستو عـــام ١٩٥٦

(وقد اصبح فيا بعد مستشار الرئيس الامريكي للشؤون الاقتصادية ، ومؤلف كتاب « مراحل النمو » الذائـــع الصيت) « ان المناطق المتخلفة ، ومواردها الطبيعية ، وسكانها ، من شأنها ، فيا لو ارتبطت فعلا بالكتلة الشيوعية ، ان تدع الولايات المتحدة تنتقل الى مرتبة الدولة الثانية في العالم... ان تطور المناطق المتخلفة من شأنه على نحو غير مباشر ان يقرر مصير اوروبا الغربية واليابان ، فيحدد بالتالي فعالية هذه المناطق المصنعة في تحالف العالم الحر الذي ندبنا لقيادته . الخلاصة ان امننا العسكري ونمط حياتنا ، وكذلك مصير اوروبا الغربية واليابان ، هي المطروحة على الرهان بالنسبة لتطور المناطق المتخلفة » . وبعبارة اخرى فان الامبريالية التي قبلت اشكالا من الاستقلال السياسي لسبب او لآخر غير مستعدة لقبول أي شكل من اشكال الاستقلال الاقتصـــادي لأن في ذلك حتف الاستعمار ونهايته .

١٠ — ولنحاول الآن ان نلقي نظرة على بنية النظام الرأسمالي من داخله . ان مراكز البت ، مراكز اصدار القرارات الاقتصـــادية ، هي الشركات ، والشركات الاحتكارية بشكل خاص وقد بلغ التركز في الشركات الرأسمالية الصناعية والمالية ، بصورة خاصة منها الامريكية ، ذروة لم يبلغها من قبل ، تفوق كل ماتصوره لينين عندما حلل منذ خمسين عاما بنظر ثاقب خصائص الامبريالية ومميزاتها . وحسبنا لادراك مدى هذا التركيز ، وبالتالي مدى سيطرة هــــذه الاحتكارات على السوق العالمية المالية والصناعية في المعسكر الاشتراكي ، ان نشير الى الوقائع التالية :

آ - ثلاث مؤســـسات مالية تهيمن على القطاع المصرفي في الولايات المتحدة الامريكية وفروعه الخارجية البالغة حوالي ثلاثمائة فرع .

ب - أربع مؤسسات صناعية تهيمن على ٧٥٪ من صناعة السيارات

جـ - « « « « ٥٣٪ من صناعة التعدين

أربع مؤسسات صناعية تهيمن على ٦٠٪ من صناعة الملاحة الجوية

« « « « ٣٢٪ من الصناعة البتروكيماوية

د - من اصل خمسين أهم مؤسسة صناعية في الولايات المتحدة توجد ست وعشرون منها فقط تملك ٦٢٪ من مجموع ماتملكه الخمسون . ويتناول مجالها الصناعة الفولاذية والبترول والتجهيز الكهربائي والالكتروني والمنتجات الكيمياوية والالمنيوم .

ونشاهد تركزاً مماثلا في العالم الرأسمالي خارج امريكا ، فمن اصل خمسين أهم منشأة في العالم الرأسمالي خارج امريكا تملك ثلاثون منها ٧٣٪ من رأس المال الشركات الخمسين وفي الفروع ذاتها .

هـ - بين اكبر خمسماية مشروع في العالم الرأسمالي يحتل مشروع «فيليبس» في هولنده - وهو اكبر مشروع في الاسرة الاوروبية - المرتبة الثالثة والثلاثين، ويحتل اكبر مشروع الماني وهو «فولكس فاكن» ، المرتبة الرابعة والثلاثين ، واكبر مشروع فرنسي المرتبة الرابعة والسبعين . ويتناول رقم اعمال شركة جنرال الكتريك وحدها رقم اعمال اكبر ثلاثة عشر مؤسسة المانية ، وكان رقم اعمالها عام ١٩٦٦ : ٧٫٢٠٠ مليار دولار ، وتقييم موجوداتها العقارية بـ ٢٠٠٧ مليار دولار .

ويتجه هذا التركز الى التزايد بمعدل متسارع بفعل الثورة الصناعية الثالثة ، أي دخول مرحلة الذرة والالكترون والفضاء الخارجي ، وما تقتضيه

من تغيير اساليب الانتاج . فتركز الانتاج اصلا ووجود المنشآت العملاقة أتاح ترسيخ جذور التقنية الجديدة بسرعة ، وهذا يقتضي بدوره تركزاً جديداً في الانتاج واقامة منشآت عملاقة اكبر لما تقتضيه الوسائل التقنية الجديدة من توظيفات جسيمة وانتاج كبير . كما ادى وجود التركز الجديد في القطاع المصرفي الى توثيق العلاقات بين المصارف والصناعة ، والى اندماج شبه تام بين الرأس المال المالي والصناعي ، في اوليغرشية مالية صناعية محدودة العدد .

ويمارس هذا التقدم التقني قوة جاذبة حتى على عقول البلاد الاخرى الأقل نمواً . وهو مانسميه ظاهرة هجرة العلماء والادمغة . وقد قدر عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة الاميركية حتى عام ١٩٦٧ من الاطباء والعلماء والفنيين بـ /١٠٠/ الف ، يقدر ماوفرته هذه البلاد من نفقات تأهيل عدد مماثل باربعة مليارات من الدولارات ، يمكن انفاقها على مجالات البحث العلمي والتطوير التقني ، مما يزيد بدوره في معدل النمو العلمي والاقتصادي .

وقد نجم عن هذا التركيز الشديد والتفوق التقني والدور القيادي الذي تضطلع به الولايات المتحدة الاميركية ان رأس المال الاميركي والصناعة الاميركية اخذا يتسللان وبسرعة لا الى البلدان المتخلفة وحسب ، لا بالحلول محل رأس المال الاوروبي المستثمر في البلاد المتخلفة وحسب (كانت المشروعات الاميركية تملك اقل من ١٠٪ من امتيازات البترول في الشرق الاوسط قبل الحرب العالمية الثانية بينما كانت الشركات الانكليزية تسيطر على ٧٢٪ ، وقد انعكست الآية بعد هذه الحرب فأصبحت ٦٠٪ للولايات المتحدة و ٣٠٪ لانجلترا) بل والى البلاد الصناعية المتقدمة في اوروبا الغربية ذاتها . ان قانون النمو المتفاوت قانون شامل ، فكما تؤدي آلية العلاقات بين الاقتصاديات الصناعية ، رأسمالية كانت أم اشتراكية ،

وبين الاقتصاديات المتخلفة الى فرز ضرب من السيطرة ، بل الاستغلال ، من قبل الاولى للثانية ، فان آلية العلاقات بين الاقتصاديات الصناعية نفسها تؤدي الى ضرب من السيطرة والاستغلال من قبـــل الاقتصاديات الاكبر نمواً على تلك الأقل نمواً .

ويتجه رأس المال الامريكي بخاصة الى الطاقـــة الذرية او الصناعات بالفضاء الخارجي ، ولئن كان الدافع الظاهري هو تحقيق الربح المباشر فما لاشك فيه ان الولايات المتحدة تريد ان تقطف ثمرات السبق التكنولوجي الذي توصلت اليه وتعويض النفقات الجسيمة التي تنفقها على البحث العلمي الاساسي ، كما يتيح لها هذا التسلل المبكر في هذه المجالات السيطرة على الصناعات الاوروبية على مقياس واسع عندما تعم أساليب التقنية الجديدة في مجال الانتاج .

وخلال السنوات العشر الاخيرة سيطرت المشروعات الامريكية على اكثر من نصف صناعة السيارات في انجلترا ، وحوالي ٤٠٪ من البترول في المانيا و ٤٠٪ من صناعة التجهيز الهاتفي والالكتروني والاحصائي في فرنسا . وتحاول هذه المشروعات الحصول على مركز مسيطر في حركة التركز على التي تجري داخل السوق الاوروبية المشتركة والسيطرة على اكـــثر ما يمكن من السوق العالمية ، وبين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٥ كان لـ ٤٦٠ من اصل ١٠٠٠ اكبر مشروع امريكي فروع في اوروبا ، وفي عام ١٩٦٥ ارتفع الرقم الى ٧٠٠ من اصل ١٠٠٠ . وبذلك بدأ تدويل رأس المال بين المشروعات العملاقة يأخذ ابعاداً اكبر مما كان متوقعاً في عهد لينين منذ خمسين عاما ورأس المال الامريكي هذا يقتطف ، بتسلله الى اوروبا ، جزءاً من ارباحها ، اذ يفتح لنفسه اسواقاً غنية بالمستهلكين من جهة ويفيد من جهة اخرى من مجالات التجارة التي تربط هذه الدول الاوروبية

منذ العهد الاستعماري بالبلاد المتخلفة التي كانت مستعمرة لها . وبعبارة اخرى يمكن القول وان يكن هذا سابقاً لاوانه : بشر السارق بالنهب .

١١ – ان السير العادي للاقتصاد الرأسمالي يؤدي الى تركز السلطات الاقتصادية في القطاعات الصناعية والمالية الرئيسية . وتركز السلطة الاقتصادية هذا يمكن تحقيقه والحفاظ عليه ودعمه عندما يكون الممسكون بهذه السلطة قادرين على السيطرة على البيئة التي يمارسون بها عملهم ، داخل الحدود القومية وخارجها ، داخل هذه الحدود حيث يتم الانتاج وتصريف السلع ، وخارجها من حيث تستمد المواد الاولية وتصرف السلع المنتجة ، وحيث تحقق معدلات عالية من الارباح بأقل التكاليف وعن طريق يد عاملة رخيصة .

والجهد المبذول من أجل تحقيق سيطرة احتكار معين يستتبع صراعاً بين الشركات العملاقة في البلد الواحد ، ولكن الصراع الأهم هو ذلك الذي بين عمالقة الاقتصاد للامم الصناعية الرئيسية . هذا الصراع الفعلي أو المحتمل يزيد الضغط من اجل تحقيق سيطرة أشد على مصادر المواد الاولية والاسواق العالمية بغية الوصول الى وضع حد للصراع القائم او استبعاد منافسين محتملين .

وفي كل هذا الصراع يلعب المال دور الشريك النافع والضروري : فتقوم التحالفات بين الصناعة ورأس المال بحيث يتغذى احدهما من الآخر . كل هذا في جو يفترض فيه ان يكون آمناً مستقراً .

ومن هنا علاقة عضوية لا انفكاك لها بين السيطرة الاقتصادية والسيطرة العسكرية ، والسيطرة السياسية ، فكل منها يحفز الآخر ويغذيه . في هذا المستوى من الاحتكار تصبح العلاقات بين المصالح الاقتصادية والسياسة الخارجية وثيقة ومتينة . ولإحكام السيطرة على المواد الاولية في معظم مناطق العالم لايعود

مسألة اقتصادية بين مسائل اخرى . بل تغدو السيطرة احد الاهداف الاساسية للاحتفاظ بالسلطة المالية والصناعية والعسكرية . وهذا هو واقع الولايات المتحدة اليوم ، وبدرجة اقل سائر الدول الرأسمالية . والملاحظ فعلا ان الاندماج بين الدولة والاوليغرشية في الولايات المتحدة اصبح كبيراً جداً وحسبنا ان نشير هنا الى اننا لو استعرضنا اسماء الوزراء الذين تتالوا على وزارة الدفاع الامريكية منذ عشرين عاماً لوجدناهم جميعاً من اقطاب الصناعة ورأس المال، كما ان من الامور المعروفة ان كبار قادة الجيش والاسطول وكبار الموظفين ينتقلون ، بعد احالتهم الى التقاعد ، بصورة شبه آلية الى القطاع الخاص ، ليشغلوا مراكز عامة في الاحتكارات الكبرى . فالاوليغرشية المالية الصناعية اصبحت في الواقع ثالوثاً صناعياً ومالياً وعسكرياً .

ومنذ عام ١٩٤٤ اي في اعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة دعا رئيس مجلس ادارة شركة جنرال الكتريك - وهي كبرى الشركات في الولايات المتحدة وفي العالم الرأسمالي - الى اقامة تحالف بين رجال الاعمال والعسكريين كما اقترح اقامة قطاع اقتصادي يعمل بصورة دائمة من اجل التسليح ، وقد بنت الولايات المتحدة فعلا اقوى آلة حربية في هذا العصر بميزانيتها وباليد العاملة التي تشغلها وبكمية الاجور - اي الدخول - التي توزعها . فوزارة الدفاع تستخدم مباشرة اكثر من خمسة ملايين انسان من مدني وعسكري ، يضاف اليهم حوالي سبعة ملايين عامل يعملون مباشرة في الصناعات العسكرية الخاصة وفي انتاج التجهيزات العسكرية . وبذلك اصبح النشاط العسكري نفسه نشاطاً اقتصادياً بالدرجة الاولى . والولايات المتحدة هي اليوم اكبر مصدر للاسلحة التقليدية في العالم ، وتصدر سنوياً بما لا يقل عن ٣٠٠٠ مليون دولار . وبذلك غدا الانفاق

العسكري عاملاً للمحافظة على معدل عال للارباح في اكثر الفروع الصناعية الهامة ، وأصبح الناظم لمعدل نمو الاقتصاد لأزمات خطيرة أو هزات عنيفة تهدد تماسكه . كما ان اقامة القواعد العسكرية في الخارج ووجوه النشاط الناجمة عنها كان مصدراً رئيسياً للنشاط الاقتصادي بصورة مباشرة وغير مباشرة : فقد انتشرت الصناعة الامريكية ورأس المال الامريكي فيما وراء البحار تحت حماية هذه القوة العسكرية الكونية . وهذا التوسع الاقتصادي والمالي والعسكري في الخارج مكن الولايات المتحدة من تولي زعامة العالم الرأسمالي المصرفية ومن فرض سيطرة الدولار كنقد عالمي، كما ان الدور المركزي لسوق المالية الامريكية وسيطرة الدولار كانا أداة لتحويل العمليـــات العسكرية في الخارج وللتوسع الدولي للصناعة وللمصارف الامريكية .

ولئن كان النشاط العسكري يفترض فيه ان يخضع لمقتضيات الأمن القومي ، فان الوحدة قائمة في اذهان المسؤولين الامريكيين بين الامن القومي والمصالح الاقتصادية : « ان ابعاد العالم « الحر » – اي الرأسمالي – ودرجة الامن الذي تسود فيه تقرر الحدود الجغرافية التي يمكن لرأس المال الامريكي ان يثمر فيها وان يتاجر بحرية » وهذا الترابط بين المصالح الاقتصادية والنشاط العسكري هو ما سماه الرئيس ايزنهاور « المركب الصناعي العسكري » الذي يسيطر فعلياً على مقدرات الولايات المتحدة وسياستها .

١٢ – بعد هذه الاضواء على بنية النظام الرأسمالي من حقنا ان نتساءل كيف تعمل الدول الرأسمالية ، بقيادة الولايات المتحدة الامريكية ، على تحقيق اهدافها في ابقاء البلاد المتخلفة تابعة لسوق الرأسماليـــة ، تمتص منها الخيرات وتخضعها لتوجهها السياسي؟ ولنقصر حديثنا على الولايات المتحدة – رغم ان ليس

ثة فروقاً جوهرية في سلوك الدول الرأسمالية في هذا المجال – لانها بلغت في هذا المضمار شأواً لم يدركها احد من سائر البلاد الرأسمالية .

يمكن القول دون مبالغة ان سياسة الولايات المتحدة تعتمد في هذا المجال على ذراعين قويين يلفان العالم غير الاشتراكي بأمره : القوات المسلحة الامريكية والمعونات الاقتصادية .

أما القوات المسلحة الامريكية فهي الذراع الحديدية ، ذراع القوة أو « العصا الغليظة » . وقد بنت الولايات المتحدة قوة عسكرية ضخمة تقوم بمهمة الحارس على مصالح الامبريالية ، تعمل على مقياس الكرة الأرضية . فالاساطيل الجوية والبحرية تجوب أبعاد السماء وآفاق المحيطات دون انقطاع ، والقواعد العسكرية الامريكية تنتشر في أربع وستين دولة ، كما ان الولايات المتحدة تطوق العالم الاشتراكي بسلسلة من الأحلاف بقيادتها هذه القوات ينحصر دورها ، في عصر يسوده توازن الرعب النووي ، في الحروب المحدودة والحركات المحلية . ووجود النشاط العسكري الامريكي ، ومجموع النفقات المترتبة عليه في الداخل والخارج ، تخدم اهدافاً متعددة تهم كلها رجال الاعمال الامريكيين واقطاب الشركات الاحتكارية صاحبة العلاقة ، ويمكن اجمالها على النحو التالي : حماية المصادر الراهنة والمحتملة للمواد الاولية ، حماية الاسواق الاجنبية والتثميرات الخارجية ، حماية طرق المواصلات الجوية والبحرية ، حماية مناطق النفوذ التي يملك الاقتصاد الامريكي فيها مركزاً ممتازاً في مجالي التثمير والتجارة ، اكتساب اسواق جديدة ومنافذ جديدة للتثمير عن طريق المعونات العسكرية ، وبصورة عامة حماية بنية السوق الرأسمالية العالمية لا لصالح الولايات المتحدة وحدها ، بل وسائر شركائها الصغار في البلاد المصنعة .

وفي عام ١٩٤٨ انشأت الولايات المتحدة قوات خاصة لمكافحة حركات التحرر الوطني والعمل في الحروب المحلية في الادغال أو في مناطق اخرى حيثما تنشب الاضطرابات وتهدد المصالح الامريكية . ويعتمد العمل الامريكي على نشاط وكالة المخابرات المركزية التي تمتد اذرعها وعيونها لرصد حركات التحرر في العالم بأسره معتمدة على احدث مبتكرات العلم والتكنولوجيا الحديثة وتتناول اعمالها من جمع المعلومات وكسب العملاء وشراء الذمم والافساد الى تزييف الفكر ، والى الاغتيال الفردي واعداد المؤامرات والانقلابات . أما النشاط العسكري الصرف فيتراوح هو ايضاً ، تبعاً لمقتضى الحال ومتطلبات الموقف ، من استعراض العضلات كما في مناورات الاسطول السادس ، الى التدخل التحذيري كما جرى في لبنان عام ١٩٥٨ ، الى عمليات الغزو كمحاولة غزو كوبا وغزو الدومنيك ، او الحرب الفعلية على مقياس واسع كما هي الحال في فيتنام . وقد تصل الولايات المتحدة الى اهدافها بصورة ملتوية عن طريق جيوش دول اخرى كموقفها من حرب الخامس من حزيران ومساندتها الجيش الاسرائيلي .

١٣ - أما المعونات فهي الذراع الناعمة للولايات المتحدة الامريكية . وحاجة البلاد المتخلفة الى المعونات ضخمة جداً ، ومن المعلوم ان نقل الارباح الناجمة عن التوظيفات الرأسمالية الخاصة في البلاد المتخلفة الى الوطن الأم ، بدلاً من اعادة تثميرها في تنمية الاقتصاديات المتخلفة ، اذا اضيف الى العجز التجاري يخلق فجوة تقدر بحوالي ٦ - ٧ مليارات دولار كل عام في الحسابات الجارية لبلدان العالم الثالث ، ولا يمكن تعويض هذا النزيف الضخم الا بمعونات تقدمها البلاد المتقدمة ، وهي شرط لدوام استقلال البلدان المتخلفة المغلوبة على امرها .

وتستغل الولايات المتحدة سلاح المعونات الاقتصادية بأشكالها المختلفة على مقياس واسع ، وتحليل هذه المعونات يبين انها تهدف الى تحقيق الاهداف التالية :

- دعم الاهداف السياسية والعسكرية للولايات المتحدة في العالم بأسره والهدف الاساسي : « دحر الشيوعية » لا يخلو من معنى اقتصادي بارز : إذ ان دحر الشيوعية او تجميدها انما يعني الحفاظ على السوق الامبريالية وتمهيد الطريق أمام الصادرات الامريكية ورؤوس اموالها . كما تستخدم المعونات والضغط الاقتصادي بما في ذلك منع الاغذية عن دول تحتاجها للتأثير في اتجاه هذه الدول .

- التأكد من أن النمو الاقتصادي يجري في البلد الذي يتلقى المعونة ضمن الاطار الرأسمالي وعلى اساس تشجيع المشروعات الحرة ، اي الخاصة ، بما يعني ضمان سيطرة المؤسسات الامريكية لتفوقها التكنولوجي والمالي والاداري.

- الحصول على مكاسب اقتصادية فورية لرجال الاعمال الامريكيين الذين يسعون وراء مجالات التجارة او التثمير .

وقد درجت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٦٥ على تضمين اتفاقات المعونات التي عقدتها مع اكثر من سبعين دولة حتى الآن نصوصاً تكفل اتباع الباب المفتوح أمام المشروعات الامريكية الخاصة ، وضمانات ضد احتمالات التأميم او المصادرة او فرض قيود على حرية تحويل النقد .

١٤ - وكثيراً ما تستغل الولايات المتحدة الامريكية دورها القيادي في هيئة الأمم المتحدة والبنك الدولي للتعمير والانشاء وصندوق النقد الدولي الوصول الى اهدافها عن طريق المنظمات الدولية ، التي يمكن اعتبارها الى حد كبير ادوات لتحقيق اهداف السياسة الامريكية ، ومن هنا اهتمامها حتى بالبلاد

الصغيرة التي لا قيمة اقتصادية ظاهرة لها . لأن الربح ليس مهماً بحد ذاته في مثل هذه الحالة . فبالنسبة لدول امريكا اللاتينية يهم الولايات المتحدة تأكيد سيطرتها الشاملة ، كما انها لا تكتفي ان تحول في بلد صغير دون مصادرة رأس المـــال الامريكي وتحصين البلد ضد الثورة الاجتماعية ، بـل يهمها ايضاً كسب صوت هذا البلد الصغير في الأمم المتحدة وسواها من المنظمات الدولية الذي يمكنهـا من تحقيق اهدافها تحت ستار من المشروعية الدولية . وكلنـا يذكر الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة على وفود هيئة الامم المتحدة لاقرار تقسيم فلسطين خلافاً لميثاق الامم المتحدة ، ومنعها الصين الشعبية - التي تمثل وحدها ربع سكان الكرة الارضية - من إشغال مقعدها الطبيعي في الامم المتحدة ، واعادة الكونغو البلجيكية الى السيطرة الامبريالية تحت هيئة الأمم المتحدة ، والحيلولة دون ادانة العدوان الاسرائيلي على الدول العربية في حزيران ١٩٦٧ ، ومساعدتها اسرائيل على تحدي الرأي العام العالمي بصورة سافرة داخل الامم المتحدة وخارجها

١٥ - ان سلاسل التبعية يمكن أن تشد بالاسلحة السياسية والماليـــة والعسكرية ، بمعونة الأساطيل والقواعد العسكرية والرشوة ونشاط المخابرات، غير أن الأسس المادية لهذه التبعية تكمن في الواقع في بنية البلدان المتخلفة نفسها كما شكلتها آليات السوق الرأسمالية . فالاستعمار الجديد يستفيـــد من « ضعف الضعفاء » . أكثر مما يفيد من .. قوة الأقوياء .. في إحكام سيطرته . فهو ليس في حاجة في معظم الأحوال الى أن يفرض نفسه من الخارج ، بل يعمـل من الداخل ، فاقتصاديات البلدان المتخلفة تعتمد على محصول رئيسي واحد يتوقف عليه استقرار اقتصادها ودخلها القومي وايراداتها العامة . ان ايرادات النفط تكون نسبة تتراوح بين ٧٥ - ١٠٠٪ من دخل كثير من الحكومات ، فمصلحة المستفيد

من النظام هي في دوام تدفق النفط لئلا تنخفض ايراداته وينخفض معه حكماً مستوى معيشة الحكام وذوي الامتيازات ، ولا يختلف شأن البورجوازية التجارية الناشئة عن ذلك . فصالحها التجارية ، أي مستوى معيشتها ترتبط بدوام هذا التبادل ، وما دامت مستفيدة من البنية القائمة فانها لن تدخر وسعاً في حمايتها والمحافظة عليها ، كما أن صيانة التجهيز الصناعي والمرافق العامة القائمة تفرض استمرار العلاقات مع المصانع الأصلية المنتجة ، وهي في الأساس مصـــانع الدول المستعمرة سابقاً ، وتلعب العادات والتعليم والروتين دورها في تعزيز هذا الارتباط . وبذلك تلتقي مصالح دول الاستعمار الجديد مع مصالح فئات محلية مختلفة ، وبينما تقف مصالح « الاستعمار الجديد » في جبهة غالباً ماتكون منسقة ان لم تكن موحدة ، بسبب وجودها بين أيدي شركات عملاقة محدودة تحتل مركزاً احتكارياً ، فإن الفئات المستفيدة في البلاد المتخلفة تكون متفرقة تفصل بينها الحدود السياسية والقومية ، وبذلك تكون الشركات الاحتكارية في الجانب الأقوى على الدوام . ان شركة « ستاندرد اويل أوف نيوجرسي » هي على سبيل المثال أكبر شركة بترولية في العالم الرأسمالي ، ويمكنها أن تفرض قراراتها على الكارتل الدولي للنفط المكون من خمس شركات امريكية وشركتين بريطانية وواحدة فرنسية . انها تساهم في رأسمال مائتي مشروع أجنبي ، وتقوم بالتنقيب عن النفط في خمس وعشرين دولة ، وتملك أربعاً وستين مصفاة موزعة في تسع وعشرين دولة ، وبذلك يمكنها الضغط على أية دولة بترولية من دول العالم الثالث بأن تخفض انتاجها فتنهار ايرادات هذه الدولة دون أن تضار الشركة بشيء لأن في وسعها تعويض النقص الواقـــع في الانتاج المحلي بزيادة الانتاج في مكان آخر . وكثيراً ماتهدد الشركات الاحتكارية بالحيلولة دون تصريف الانتاج كالنفط في السوق العالمية في حال قيام احتمال بتأميم

النفط ، وتدعمها الدول الاستعمارية بأن تهدد بوقف المعونات الاقتصادية والفنية التي تقدمها ، مما يشكل وسيلة فعالة للضغط لوجود فئة واسعة من السكان المحليين نسبياً تفيد من هذه المعونة بالذات لتعيش حياة على نمط مماثل لنمط حياة البورجوازيين في البلاد المتقدمة ويسهل عليها الخضوع لارادة الأجنبي حفظاً على مستوى معيشتها .

١٦ – وتقدم البنية الاجتماعية في بلدان العالم الثالث ثغرات واسعة يتسلل منها الضغط والتأثير الأجنبي . فمعظم هذه البلاد امم ناقصة التكوين ، لم يتوفر لها الاندماج القومي بسبب ظروف التخلف ورواسب الاستعمار التقليدي ، وتسيطر فيها العصبيات القبلية والطائفية والاقليمية على الاعتبارات القومية ، ويشكل التخلف الاقتصادي والاجتماعي بنية اجتماعية تعزز التسلط والاستغلال ، لانعدام دور المواطن كفرد وكجماهير ، فيفيد الاستعمار الجديد من هذه الثغرات في اقامة أو دعم طبقة اجتماعية حاكمة تلتقي مصالحها مع مصالحه وتكون خليفته . وقد تتحقق ذلك عن طريق تعيين أبناء هذه الطبقات – وهم في غالب الأحيان من خريجي جامعاته – في المناصب الهامة والمراكز الحساسة في الدولة ، بما في ذلك عضوية مجالس ادارة الشركات ، لتكوين طبقة عازلة عن جماهير المجتمع وتطلعاتها وطموحها ، طبقة تفكر وتعيش على النمط الغربي ، راضية بالتفاهم مع الاستعمار الجديد » .

وما أن يتخلخل نفوذ هذه الطبقة بسبب تصاعد الوعي الاجتماعي وتطور البنية الاجتماعية وتطلع الجماهير المحرومة الى مستوى أفضل حتى يعمد الاستعمار الجديد » بالوسائل الفعالة المتاحة له الى اغراء بعض القادة العسكريين بتسلم السلطة ، ويدعمهم بالمعونات المختلفة الأشكال ليحققوا « توطيد النظام » أي استقرار

مصالحه ، ومع أن الجيوش الوطنية قامت بدور مشرف في حماية كثير من بلدان العالم الثالث من مؤامرات « الاستعمار الجديد » وصمدت لمحاولاته ، فان عجزها عن بناء حركات جماهيرية تلتحم بالسلطة وتكون قاعدة لها متينة وعريضة ، وما تنطوي عليه السلطة من مكاسب مادية ومعنوية يولد حب الاستئثار بالسلطة وما يتفرع عن ذلك من صراع على السلطة يؤدي بالنتيجة الى انفصال سافر بين الجماهير الشعبية والحكم ، مما يشكل ثغرة ملائمة لتدخل الاستعمار الجديد وتفجيره التناقضات القائمة في صالح الفئات التي يمكن أن يركن اليها . وكثيراً ما يجهض « الاستعمار الجديد » حركات التحرر الاجتماعي بتحريك فئات تنادي بالشعارات اليسارية المتطرفة ، لتفريغ هذه الشعارات من محتواها و « تفليس » الحركات الناشئة التي كان يمكن أن تتطور الى حركات جدية .

١٧ – وفي وطننا العربي يكمن حرص الاستعمار الجديد على استمرار ظروف التخلف ، التي تمكنه من الاستمرار في نهب خيرات الوطن العربي، لاسيما ثرواته النفطية ، واستغلال موقعه الستراتيجي ، وراء مخططه الذي أفضى الى اقامة « اسرائيل » حربة في قلب الوطن العربي تفصل بين أجزائه الآسيوية والافريقية وتكرس التجزئة بين أقطاره ، ولفرض عليها تخصيص مواردها للدفاع بدلاً من توجيهها للتنمية فيدوم بذلك تخلفها ، وهو السبيل الأمين لاستمرار تبعيتها الاقتصادية ، وبالتالي السياسية ومن هنا كان الارتباط بين التجزئة والتخلف والاستعمار بشكليه الجديد والقديم ، ارتباطاً عضوياً لافكاك منه إلا بالقضاء على التجزئة تمهيداً للقضاء على رواسب التخلف وحماية تحرر العرب وتقدمهم .

١٨ – لئن اضطرت الدول المستعمرة الى الجلاء بجيوشها تحت ضغط

الحركات التحررية وقيام المعسكر الاشتراكي ، فان الاستعمار لم ينحسر الا مرغماً عن مواقفه ، وهو لا يمكن أن يتخلى طواعية عن الأرباح الجسيمة التي يستمدها من البلاد المتخلفة ، لذلك نراه يعمد الى طرق مختلفة واساليب ملتوية لبلوغ الأهداف ذاتها التي كان يحققها عن طريق « الاستعمار القديم » : الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية وبالتالي التبعية الاقتصادية . هذه الطرق والاساليب التي يطلق عليها تعبير « الاستعمار الجديد » تتجلى في أشكال وصور يتعذر حصرها لأنها تتكيف على الدوام لتتلاءم مع تطور الظروف الدولية ووعي الشعوب . وينطوي الاستعمار الجديد اذن على استغلال فقر البلاد المتخلفة وصعوباتها الداخلية لفرض التبعية الاقتصادية عليها ، بل والسياسية إن أمكن ذلك ، عن طريق شل التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي المترتب عليها ، وإذا تعذر تحقيق هذا الهدف فعن طريق إبطاء معدل النمو ومحاولة التحكم في اتجاه التطور . كل ذلك بحيث يشعر البلد المتخلف ، رغم استقلاله السياسي الظاهري ، الذي يتجلى في نظمه السياسية وجيشه الوطني وعلمه وعلاقاته الدبلوماسية ، ان ثمة روابط عديدة ، ظاهرة وخفية ؟ تشده الى عجلة الامبريالية وسوقها العالمية .

ان « الاستعمار الجديد » ... بهذا المعنى ليس جديداً على الاطلاق . انه صورة مكررة للسياسة التي اتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة على أمريكا اللاتينية منذ قرن ونصف : سياسة تعتمد على أساسين : سياسة « الدولار » من جهة وسياسة « العصا الغليظة » من جهة أخرى ، هذه السياسة اذ اتسعت لتصبح على مقياس العالم استبقت كل المظاهر الأساسية التي كانت تتميز هذه المظاهر في مراحلها المبكرة ولكن في مستوى جديد .

مفاهيم الإعلام والتواصل والنظم

د. سعيد القنا

١ ــ مفهوم الاعلام

ان جميع الكائنات الحية ، وكذلك جميع المؤسسات والمنظمات التي ابتدعها الانسان ليمارس من خلالها نشاطه وابداعاته ، تعتمد على مؤونة من المعلومات اللازمة لمجرد وجودها ومن ثم لبلوغها أهدافها المعينة . وان التقدير الكامل لأهمية واتساع نطاق هــذا المفهوم للمعلومات أو الاعلام قد تطلب وقتاً طويلاً . واذا كان لا بد من تحديد سبب رئيسي يكمن وراء هذا التطوّر ويدفعه الى أمام فانه من الممكن القول ، دون خوف من الانزلاق في خطأ التعميم ، ان الحجم المتعاظم والتعقيد المتزايد للمنظمات التي ابتدعها الجنس البشري يصح وضعها في المقدمة . ان هدفنا في هذه الدراسة هو مناقشة هذا الحقل الجديد من حقول الاهتمام المعاصرة ، وذلك من خلال عــدد محدود من الأفكار

والأساسيات التي يمكن اعتبارها منطلقات أولية، على أن نتبعها في دراسات قادمة ببحث أكثر تفصيلاً لهذه المنطلقات ودلالاتها.

ومن الضروري، بالتالي، أن نوضح أن اهتمامنا هنا منصب على جانب معين من مفهوم الاعلام - ذلك المتصل بالمنظمات ذات الطابع الاقتصادي. ولقد اخترنا كلمة المنظمات بدلاً من المنشآت لأننا نبغي من وراء ذلك التركيز على مدلول يتوافق مع أسلوب معالجتنا لهذا الموضوع. نحن نرى بارتباط عضوي بين المنظمة والمعلومات المتدفقة اليها ومنها. وبما أن المعلومات يمكن أن تشمل كل ما يتصل بالمعرفة، فانه من الضروري، كذلك، أن نوضح أن المعلومات التي نبغي التطرق اليها، بتحديد أكثر فيما بعد، هي تلك المتصلة «بقياس وتقييم اداء المنظمات الاقتصادية بواسطة الوحدة النقدية أو المالية». وفي هذا المجال نستطيع الاشارة الى أنه، تاريخياً، تعتبر المحاسبة أقدم الانظومات الاعلامية تطوراً وتكاملاً. غير أن ما يحدث اليوم يمكن أن يوصف بأنه محاولة الارتفاع بمستوى المحاسبة، كأنظومة اعلامية، الى المستوى الذي أصبحت تفرضه معطيات التطور في التكنولوجيا وفي الأهداف الاجتماعية المؤثرة فيها والمتأثرة بها.

التغير والتنظيم:

ان الاتجاه نحو التغيير المتواصل، هو من مميزات الكائنات الانسانية بالمقارنة مع الكائنات الحية الأخرى وبالتأكيد، فان هذه الصفة لم تكن أبداً بمثل ما هي عليه اليوم بسبب التغييرات التكنولوجية التي تبدو وكأنها تتقدم بسرعة تتفوق على قدرة الانسانية، ولو من الناحية النظرية، ومؤسساتها المجتمعية على التطبيع، والتبني، والاستخدام المثمر في فترة معقولة من الزمن.

ان تطور العلاقات الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية ذو تاريخ طويل ، ومجال بحث ذلك ليس هذه العجالة ، بالطبع وما دمنا مهتمين بالمعلومات ، فانه من المناسب أن نتذكر أن مصدر المعلومات الرئيسي في الفعاليات الاقتصادية ، في بداية هذا القرن مثلاً ، كان رأس الانسان المدير ، ولم تساعده في هذه العملية الا مجموعة بدائية من القيود الشكلية (كدفتر الصندوق ، واليومية ، ودفتر الأستاذ ..) ، وكان ماسك الدفاتر ، أداة جمع المعلومات ، لو استخدم ، ذا دور محدود جداً ومتقلص الفعالية .

غير أن التغير في حجم ونطاق فاعلية المنظمات الاقتصادية قد أثر في هذا الوضع تأثيراً هائلاً . حتى لقد قدر بعض الكتاب أن كمية البيانات التي تحتاج اليها « منشأة » ما يمكن أن تقاس بمربع نموها واتساعها(1) . وسواء كانت هذه النسبة صحيحة أم لا ، فان الزيادة الهائلة في طلب المعلومات ، وفي عرضها ، لا يمكن انكارها . وهذا أمر نلاحظه بالتجربة الفردية . ان قضية التوصل الى معلومات مناسبة ، القضية التي كانت بالكاد مشكلة في المنشأة البدائية ، قد أصبحت في العصر الراهن أمراً حيوياً ، يحسها ويعاني منها متخذو القرارات في المنظمات الكبيرة ، اقتصادية أو غير ذلك . لقد أصبح واضحاً أنـــه دون بناء اعلامي متشعب ومفصل ، فان متخذي القرارات أو المديرين من مستويات مختلفة في العملية الادارية ، لن يكون بمقدورهم اداء المهات الملقاة على عواتقهم كما يجب . ذلك أن أي تعثر أو اختناق في تدفق المعلومات أو البيانات ولو لفترة وجيزة ، سوف يسبب ضياعاً هائلاً لا يمكن التغاضي عنه ، فضلاً عن كونه مسبباً للاحراج والارتباك .

---

(1) Carrithers and Weinwurm : Business Inform ation and Accounting Systems, (C. E. Merrill Publishing Co; Columbus, Ohio. USA 1967)

٢ ــ الاعلام والسبرانية

تم اكتشاف الآفاق الواسعة لمفهوم المعلومات المعاصر منذ سنوات قليلة ماضية فقط. فقد انطلق علم جديد أخذ يعكس تماثلا كبيرا، ومدهشا، فيما بين المتطلبات الاعلامية للكائنات الحية وبين المتطلبات الاعلامية للمنظمات التي خلقها الانسان. وبدأ أسلوب «التحليل»، الذي سبق اللجوء اليه في العديد من الحقول، متوافقا تماما مع معطيات هذه المنظمات بشكل لم يكن متوقعا من قبل. لقد دعي هذا العلم الجديد «السبرانية» Cybernetics من قبل واحد من مبدعيه الأوائل وهو البروفسور نوربوت فيز، وهو عالم الرياضيات الذي كان أستاذا في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا [١]. لقد بين فيز وزملاؤه أن كلا من الكائنات الحية والمؤسسات الانسانية تعتمد على أنظومات للاعلام متماثلة من أجل استمرار وجودها. وهكذا، فقد أصبح ممكنا تطبيق نتائج البحوث التي أجريت في علم الأحياء (بيولوجيا) على قضايا ومشاكل المنظمات الاقتصادية [٢]. ان مدلول ذلك غني عن التعبير لأن البحوث التجريبية يمكن اجراؤها على كائنات حية في البيولوجيا بسهولة ويسر أكثر من امكانية اجرائها على بني الانسان ومؤسساتهم.

---

(1) Norbert weiner, Cybernetics, (John wiley and Sons, NewYork, 1948).

في مقدمة هذا المؤلف الأساسي، يعرض العالم الخطوط العريضة للتطور التاريخي للبحوث التي تمت في حقول مختلفة وأدت الى خلق العلم الجديد. ويشير العنوان الفرعي لهذا المؤلف، وهو: الرقابة والاتصال في الحيوان والآلة، الى أهدافه الأساسية.

(٢) يضم معهد بليخانوف للاقتصاد في موسكو قسما أكاديميا خاصا للسبرانية.

لقد طورت السبرانية نظريات يمكن تطبيقها على دراسات الانظومات الاعلامية وعمليات تحليل واتخاذ القرارات . ويأتي في مقدمة مفاهيم هذه النظريات الجديدة مفهوم الارتجاع أو الانعكاس feedback الذي ابتدع في حقل تكنولوجيا الكهرباء . ان هذا المفهوم أخذ يجد مجالا واسعا للتطبيق في أنظومات الاعلام الاقتصادية . لقد بينت السبرانية أن كل عضو أو منظمة (مؤسسة) تمثل أنظومة قائمة بذاتها يمكن تقسيمها الى عدد من الانظومات الفرعية . تماما كما هو الحال بالنسبة للآلة ومعالجتها على هذا الأساس .

٣ ــ مفهوم النظم :

في الواقع ، يمكن الحديث عن عدد من المفاهيم التي تتضمنها كلمة النظم أو الانظومات . في أوسع معانيها ، تعكس الانظومة مجموعة متناسقة من المكونات ، أو تمثـــل أجزاء متصلة مشدود بعضها الى بعض في « شبكة من العلاقات » . انها تعني المتطلبات الاعلامية التي تجعل عملية المراقبة وتوجيه النشاط ممكنة .

والانسان ، في محاولته فهم العالم من حوله ، وفهم نفسه ، يواجه كمية مبهرة ومتفاوتة من الانطباعات ، وكذلك بيانات عن الحقائق ، لابد من ترتيبها وتكاملها من أجل تقدير أفضل لمداليلها وفهم أكمل لمعانيها وعلاقاتها المتداخلة . ان مفهوم النظم هو الوسيلة الأنجع المؤدية الى بلوغ هذه الغاية . انها طريقة لعقلنة العالم . ان الكون ، بحسب هذا المفهوم ، يمكن تصوره على أنه مؤلف من مجموعة من النظم ، كل منها مشمولة بواحدة أكبر ، مثل مجموعة ما يسمى

بالانكليزية Hollow building blocks [1].

ان مناقشة مختصرة لبعض جوانب مفهوم النظم يمكن أن تؤدي الى وصف اطاره الواسع ، وكذلك تأثيره على المشكلات « غير المعتادة » التي نهتم بها في هذا المجال .

● نستطيع القول ان كائناً حياً ، منظمة ، أو آلة ، يصح النظر اليها كانظومة ، أي جزء فيها أساسي لكل الأجزاء ويؤدي دوراً هاماً ، ويساهم ، في وجودها وأدائها المناسب . وعلى هذا فان جميع الكائنات الحية ، بما في ذلك الانسان نفسه ، هي أمثلة عن هذه النظم . وهذا المفهوم يمكن أن يستخدم ليمثل وحدات اصطناعية ، مثل الآلة . وجميع هـــذه الانظومات تتطلب شبكة اعلامية لأداء وظائفها . وسنعود الى ذلك بعد قليل .

● كما نستطيع أن نتحدث عن مفهوم النظم من خلال اطار تصنيفي للبيانات المنبثقة عن مصادر مختلفة هذه البيانات يجب أن يتم توثيها بشكل رسمي formal ومنطقي من أجل التقييم الصحيح ، والا فانه من غير الممكن فهم أهميتها وعلاقاتها المتداخلة فهماً تاماً . وكلما اتسعت حدود أنظومة التصنيف ، ازدادت كمية المعلومات التي يمكن استقطابها . وان كان مؤدى ذلك في بعض الأحوال ، الحصول على معلومات أقل تحديداً هذه البيانات ، يمكن استخدامها في أنظومات مختلفة للتزويد بالعديد من أنواع المعلومات ونتيجة لذلك ، فإن مضامين بعض النظم قد تكرر بعض اجزائها ، ولكن كلا منها سوف يقوم باغناء خاص المعرفة الانسانية وفهم للعالم ونلاحظ في هذا الصدد ان العديد

(1) Stafford Beer: Cybernetics and Management, (John wilex & Sons, New York, 1959)

من العلوم الطبيعية (كعلوم الحيوان ، والنبات ، والفيزياء ، الكيمياء ، الخ .) يمكن ان تخدم كتوضيح لهذا النوع . ذلك ان البيانات نفسها يمكن ان تشملها انظومات العلوم الطبيعية المختلفة والعلوم الاجتماعية ايضا .

● وهنالك مفهوم ثالث للنظم ذو طابع اجرائي . ذلك أنه يتم اداء فاعلية ما بأسلوب انتظامي اذا كانت كل خطوة تاليـــة تتبع وتنبني على خطوة سابقة تم تعريفها تماما . وجميع هذه الخطوات تكون مترابطة وأساسية من اجل بلوغ الهدف المبتغى ، بحيث أنه لايمكن الغاء أي منها دونما تأثير على كامل البناء. ونجد في الطريقة العلمية للبحث مثالا على هذا الاسلوب .

● كما يمكن البحث في الانظومة التي تدعى اطـــاراً لتدفق المعلومات (شبكة تواصل) . وكما قلنا قبلا ، فانه ليس هنالك كائن حي ، أومنظمة تستطيع أن تعمل بشكل مرض دونما شبكة من هذا النوع تربط جميع الأجزاء بصرف النظر عن مواضعها الفيزيائية . مرة ثانية ، نجد في جسم الانسان مثالا جيداً عن شبكة التواصل وعدم امكانية الاستغناء عنها .

● كذلك فان جميع الانظومات ذات ميزات مشتركة ، مثل : المنطقية ، الاجراءات الخطوية ، شبكة التواصل ، والتكامل الشديد لجميع الأجزاء . وفي التمثيل على ذلك نلاحظ ان الكثير من أنظومات الأسلحة الحديثة يتألف من العديد من أنظومات فرعية عليها أن تتكامل في انظومة كلية لتنسيق نشاطاتها متعددة الوجود . كما نلاحظ ذلك في أنظومات المواصلات المعقدة ، شبكات الخطوط الحديدية ، شبكات الاتصال السلكية واللاسلكية ، وهذه كلها قد تتألف من آلاف أو ملايين من الأنظومات الفرعية والوحدات المفردة ، التي يتم تكاملها

جميعا ضمن انظومة كلية مهمتها اداء وظائف محددة مسبقاً وبكل دقة . والمنظمات الاقتصادية بدورها ، تعمل على أساس مفاهيم مماثلة .

● ومن حيث الأهمية ، فانه يتم تصميم الأنظومات ظواهر عامة كلما بدت الحاجة ملحة الى تعاون وتعاضد فيما بين أعداد كبيرة من الوحدات المفردة ، أو من اجل فهم أفضل لبيانات كثيرة منفصل بعضها عن بعض وذلك عبر تصنيف منطقي وشمولي واعتماداً على طبيعة الهدف المنشود ، فان هذه الوحدات المفردة ، أو الأنظومات الفرعية ، يمكن أن تنضم الى أنظومات كاملة أخرى ، أو أن الأنظومات الفرعية يمكن تقسيمها الى انظومات (فرعية) أدق أو أصغر من أجل تأمين تحليل اكثر تفصيلا وفاعلية . وما من شك أن الانسان هو تعبير جيد عن الأنظومة التي تتألف من عدد من الأنظومات الفرعية التي تنضم الى انظومات فرعية اخرى بحيث تشكل انظومات اوسع نطاقا (كالمؤسسات المهنية ، والوحدات المحلية (والدولة بكاملها) . وبالمقابل فان انظومات فرعية مفردة يمكن أن تقسم من اجل تحقيق اهداف تحليلية معينة . فالمنظمة الاقتصادية ، والمعامل ، ومحال التجزئة ذات الاقسام ، هي امثلة اخرى للانظومات والانظومات الفرعية المشكلة لها . فالمصنع ، الذي هو انظومة فرعية في المنظمة الاقتصادية ، يمكن ان ينقسم بدوره الى مراكز انتاج ، ذات فروع او اقسام مختلفة ، ومراكز خدمات ، ذات فروع مختصة بالطاقة والصيانة والطبابة الخ .. واخيراً ، فإن الحاسب الالكتروني (الذي يسمى بالعربية تجاوزاً – من غير ان يكون هنالك داع - العقل الالكتروني(1)) يمثل انظومة تقوم بجمع وتهيئة واعداد المعلومات

---

(1) أنظر : نظم الاعلام الالكترونية ، د. سعيد القنا ، مطبوعات الاتحاد الوطني لطلبة سوريا ، (استنسل) ، ۱۹۷۰ ، وخاصة المقدمة .

تماما كما يفعل المعمل حين تستخدم فيه المدخلات لانتاج مخرجات تامة الصنع . والحاسب الالكتروني هذا ، يمكن النظر اليه على انه انظومة فرعية من انظومات المنظمة الاقتصادية المتعددة ، وهو بدوره يؤلف عدداً من الانظومات الفرعية الاصغر (كوحدة المدخل / المخرج ، والذاكــرة ، والرقابة ، والمنطق / الحساب الخ ...) .

٤ ــ الانظومة الاعلامية

لقد اعتبرنا مفهوم المعلومات وأهميته المتنامية نقطة انطلاق رئيسية في مناقشتنا . وبعد ان قمنا بعرض مبسط ومختصر لمفهوم النظم ، فانه يمكننا الآن ان نوحد المفهومين في اطار الانظومة الاعلامية .

على الرغم من ان تطور نظرية ، قائمة بذاتها ، للمعلومات هو امر حديث العهد ، الا انه لا يمكن ان نشتط في تفسير ذلك ونأخذه على محمل ان المفهوم نفسه ذو تاريخ قصير ايضاً . لقد طورت الطبيعة انظوماتها الاعلامية منذ مابدأت الكائنات الحية تظهر الى الوجود ، والجنس البشري يعود اهتمامه بتأمين المعلومات ربما الى آلاف السنين . واذا عدنا الى مثالنا السابق ذكره في بداية هذا البحث ، فاننا نجد ان المحاسبة التي تزود بحل معين لمشكلة اعلامية هامة ، انما هي تكنيك قديم ، ومع ذلك فان غياب نظرية متسقة أساسية كانت له آثار عميقة ليس على التطبيقات المحاسبية وحسب ، ولكن على قضايا النظم الاعلاميـــة في المنظمات الاقتصادية .

لقد ولدت نظرية المعلومات المعاصرة ، كما اسلفنا ، من دراسة انظومات الاتصال الكهربائية . وكان اهتمامها ، باديء ذي بدء ، منصبا على تطوير وانماء

افضل الاساليب واكثرها فعالية لارسال الاشارات أو الرموز عبر دارات كهربية . ومن الممكن القول ان اول عرض لنظرية منسقة (غير متناقضة) للاتصال يعزى الى كارد شانون الذي قام بابحاثه في مخابر علمية معروفة (١) .

ان القضية الأساسية لهذه النظرية كانت محاولتها تحديد كمية دنيا من الرموز والاشارات المطلوبة لارسال او نقل رسالة معينة ، وبالتالي كمية عظمى من المعلومات ، عبر عدد معين من الدارات او الشبكات . وهذا بالطبع ، يتفق مع المبادىء الاساسية للهندسة : الحصول على افضل النتائج بأمثل استخدام اقتصادي ممكن للادوات المطلوبة ومع ذلك ، فان هذه الفكرة ذات مداليل بعيدة المدى بالنسبة لتصميم انظومات التواصل في المنظمات الاقتصادية .

ومن بين الوسائل المستخدمة لتدنية كمية البيانات المطلوبة لنقل رسالة معينة : الاحتمالية الاحصائية وادوات الترميز . ورموز مورس المعروفة هي مثال جيد من النوع الأخير . والرموز الرقمية يمكن ان توجد لها ، بالفعل ، تطبيقات واسعة للحصول على عرض مختصر للمعلومات من خلال الكلمات المفردة ، مضمومات الكلمات ، او الجمل الكاملة . وفي لغة المحاسبة الاقتصادية نستطيع ان نشير الى عملية اعداد تقارير بالانحرافات عن الانماط المحددة مسبقاً (الخطة) بدلاً من عرض كامل المعلومات المتصلة بالبيانات النمطية المحددة سابقاً ، والبيانات الفعلية ، والانحرافات

أما الاحتمالية الاحصائية فهي تستخدم لتحديد كمية البيانات أو الرموز المطلوبة لتأمين فرصة كافية للتفسير الصحيح للرسالة المنقولة ، من قبل المرسل

(1) Shannon and Weaver: The Mathematical Theory of Communication, (University of Illinois press, Urbana, Illinois . 1949)

اليه . ان تحليلاً متأنياً لهيكل او بنية الجملة يمكن ان يؤدي الى اختيـــار تلك الكلمات ، والرموز ، والبيانات التي يجب ارسالها مع توفر احتمالية معقولة في أن ما تم اسقاطه او استبعاده سوف يكون بالمستطاع ابلاجه من قبل المرسل اليه ومن ثم تفسيره بشكل صحيح . ان احتمالية التفسير الصحيح يمكن تتحسن مع تزايد معرفة المرسل اليـــه بنوع المعلومات التي تبغي الرسالة نقلها . فقليل من الكلمات او الرموز المتبادلة بين ادارة المصنع أو مكتب المبيعات وبين الادارة العامة للمنظمة الاقتصادية يكون يكون كافيـاً لتزويد المدير التنفيذي بصورة مناسبة الوضوح عن وضع معقد . ان عدد الرموز المطلوبة لبلوغ النتيجة المبتغاة يتباين اعتماداً على موضوع البحث وعلى الافراد الذين يشملهم ذلك الموضوع . وهذه اعتبارات هامة جداً بالنسبة لمصممي انظومات الاعلام في المنظمات الاقتصادية.

ومن ناحية اخرى، فان مفهوم المعلومات شديد الارتباط بمفهوم الرقابة. فانظومات الاعلام للكائنات الحية الفيزيائية قد بنت ضمناً رقابات مصممة للحفاظ على استقرار هـذه الانظومات بأخذها بعين الاعتبار أية تقلبات وقيامها باجراء التسويات المناسبة فوراً . ان حرارة جسم الانسان يتم الحفاظ عليها عند مستوى معين ، تحت شروط عادية، بصرف النظر عن الحرارة الخارجية والقلب يسارع نبضاته لمقابلة الاجهاد ، أو جهد من نوع معين ، حفاظاً على شريان دموي مستقر . هذه الافعال هي نتيجة لمبدأ الانعكاس او الارتجاع ، الذي سبق ذكره ، وهو التعبير الذي ولد في حقل الآلية المؤازرة servomechanism او انظومات الآلات المراقبة ذاتياً .

لننظر الى ميزان تنظيم الحرارة الاوتوماتيكي ، فهو يعطينا مثالاً عن الآلية المؤازرة ذات الترتيبات الانعكاسية . انه يحافظ على حرارة مستقرة في

غرفة ما ، وذلك بناء على مستوى محدد سلفاً ، عن طريق انتظام أوتوماتيكي لكمية الحرارة الواجب أن يزود بها الفرن الذي هو ايضاً جزء من الانظومة . ان ميزان تنظيم الحرارة «يجمع» معلومات عن حرارة الغرفة ويرجعها الى الفرق مع التعليمات المناسبة .

وفي نهاية حديثنا عن الانظومة الاعلامية لا بد من الاشارة الى حقيقة كون هذه الانظومات مؤيدة ومؤازرة من قبل مفهومين آخرين هما : ١ ـ جمع المعلومات لصيانة وتعضيد عمليات الانظومة ، ٢ ـ ترتيب الانظومة الاعلامية . عبر أسلوب الانعكاسية الأتوماتيكية ، لنقل البيانات الراهنة الى الوحدة الموجهة في المنظومة ، لتقوم هذه الأخيرة بالمحافظة على استقرارها . ومما لا شك فيه أن هـذا ترتيب ذو قدرة عظيمة واستعمالات عدة وقابل للتطبيق في أنظومات المنظمات الاقتصادية .

٥ ـ أنظومة التواصل :

الاعلام والتواصل شديدا الارتباط ، حتى انهما يستخدمان في بعض الأحيان تبادلياً . والحقيقة أنه في الحديث عن الأنظومات الاعلامية فاننا غالباً ما نشير الى بعض جوانب أنظومة التواصل استكمالاً لعرض أفضل للافكار المطروحة . ومع ذلك فهنالك بعض الفروق الهامة بين الاعلام والتواصل بحيث انه يصبح من المستحسن اعتبارهما بشكل مستقل .

تهتم الانظومة الاعلامية بشكل رئيسي بجانب المدخلات . انها تركز على ادوات استنباط المعلومات او تحديدها ، في ادماجها في صلب الانظومة ، وفي تواكمها او تجميعها طبقاً لمتطلبات معينة ، وقد يكون ممكناً جمع المعلومات

دونما اعتبار لتوصيلها ، مع انه من الصعب الافتراض بأن جمع المعلومات يجب ان يكون غاية دون اعتبار لأمر توصيلها على الاطلاق .

أما أنظومة التواصل ، فانها تهتم بالتحديد بجوانب المخرجات ، أي ارسال المعلومات التي سبق تجميعها . ويحتم التواصل وجود طرفين أو جهتين ، باعتبار أن جهة واحدة لا يمكن أن تتواصل مع نفسها ! وان تم نقل رسالة معينة ، فان هذا لا يعني أن التواصل قد تم اذا كانت الجهة المرسلة غير قادرة على تمكين الجهة المرسل اليها من فهم مضمون هذه الرسالة . لذلك قد يتوجب التمييز بين الارسال أو النقل بالمعنى التكنولوجي ، والتواصل بالمعنى الذي نقصد ؛ وهو بلوغ هدف الاعلام . وقد يحدث هذا اذا كان المستلم لا يفهم الرموز المستعملة في الرسالة المنقولة . كما لو أن برقية شيفرة قد أرسلت الى شخص ليس لديه دليل الشيفرة لفكها . ومن الواجب الاشارة ، هنا ، الى أن مشاكل التواصل قد لقيت ، حتى الآن ، اهتماماً أقل مما لقيته المعلومات في أنظومات الاعلام للمنظمات الاقتصادية .

٦ ــ « الموديلات » او النماذج :

ان فائدة الموديلات في تحليل الانظومات المعقدة يتزايد الاهتمام بها خاصة في ظروف تكون معها التجارب الفعلية غير ممكنة أو غير عملية ، كما هو الحال في المنظمات المجتمعية بما في ذلك الاقتصادية منها . ما هي هذه الموديلات ، وما هي بعض أنواعها ؟

هنالك موديلات تجريدية تقابل الموديلات الفيزيائية حيث الأخيرة عبارة عن تمثيل فيزيائي للوحدة مجال « المـوْدَلـَة » . والموديلات التجريدية تستخدم أنواعاً مختلفة من الرموز . فاما ان توصف الانظومة بالكلمات أو بالرياضيات .

والنوع الأخير الرياضي الذي يتميز بكونه أكثر تحديداً ، وأكثر يسراً على المعالجة ، اصبح مستخدماً من نطاق واسع لتحليـــل وايجاد الحلول المشاكل القرارية التي تواجه ادارة المنظمة الاقتصادية .

هذه الموديلات الرياضية تمكن من اجراء تجارب مراقبـــة باستخدام المعادلات الرياضية التي تعبر عن العلاقات المتصلة بوضع معين . اي انه يمكن اختبار عدد من الشروط والافتراضات عبر هذا النوع من الموديلات بحيث ان آثار التغييرات على القرارات البديلة يمكن تحديدها وتقييمها .

مبدئياً نستطيع القول ان الموديلات الرياضية يمكن اعدادها وتطويرها من اجل اي نوع من المنظمات. ولكن قد تكون هنالك صعوبات عملية وتطبيقية، خاصة اذا ما برزت الى السطح معضلة اعطاء مضمون كمي لبعض العوامل المتصلة بالسلوك الانساني وفعاليات الانسان . ولذلك فان الاسلوب المتبع عادة هو وضع افتراضات مبسطة من اجل تجنب التعقيدات ما امكن ، خاصة اذا كان عدد العوامل كبيرا جدا ومستعصياً على التحديد الدقيق . غير ان هذا الاجراء قد يحد من فائدة الموديلات واهمية استنتاجاتها .

ان القيام باجراء تجارب متوسلة بالموديلات الرياضية معروف باســـم Simulation ، ونجد ان افضل ترجمـــة لهذا الاصطلاح هي كلمة « تنظير » . لقد برهن التنظير فائدته في ظروف متفاوتة باعتبار ان الشروط المادية والاجتماعية يمكن تنظيرها . وقد ساعد في هـــذا النجاح لأسلوب التنظير توفر الحاسبات الالكترونية التي الغت ، بالتقريب ، الصعوبات الفيزيائية الناتجـــة عن معالجة ضخمة من البيانات . لقـــد اصبح شيئا طبيعيا في العصر الحاضر تنظير الشبكات اعلامية وشبكات الاتصال واختيار افضلها في ضوء معطيات ظروف معينة .

٧ ـ الخلاصة :

قلنا ان المعلومات هي مطلب اساسي لبقاء جميع الكائنات الحية والمنظمات التي ابتدعها الانسان . ان نمو واضطراد تعقيد الأخيرة قد دفع بقضايا المعلومات والتواصل الى مقدمة الامور التي تشغل بال الباحثين والعلماء في العصر الحديث . والانظومات الاعلامية هي جزء اساسي من التكوين الشمولي للمنظمات التي تعتمد على شبكات اتصال في قيامها بنشاطها على الوجه الاكمل .

ان علم السبرانية الحديث قد جعل الرقابة والمبدأ الأساسي في الانعكاس أجزاء لا يمكن الاستغناء عنها في الأنظومات الاعلامية . وتقوم الانظومات الاعلامية بجمع البيانات وتهيئتها، بينما تقوم أنظومات التواصل بارسال المعلومات (مخرجات) لإمكان الاستفادة منها .

وأخيراً فان الموديلات الرياضية وأساليب التنظير التي اثبتت جدواها في العلوم الطبيعية والاجتماعية ، تجد مجالات تطبيقية واسعة النطاق في تصميم الشبكات الاعلامية ، ولا تشذ عن ذلك المنظمات الاقتصادية .

المجتمع والفرد (١)

حديث مع لوكاتش

ترجمة : أنطون شاهين

جورج لوكاتش ولد في بودابست ١٣ نيسان ١٨٨٥ وتوفي فيها في ٥ حزيران ١٩٧١ - غني عن التعريف، فهو علم من اعلام الفكر اليساري ورائد من رواد الجمالية الاشتراكية . غزير الانتاج ، ملتزم رغم حياده أحياناً عن الاتجاه الرسمي. ناضل في ميدانين: ميدان الكلمة وميدان الفعل ، فخاض حرباً نظرية فأثار غبار جدل حامي الوطيس، كما اشترك في الحكم.. فنفي وهاجه رفقاؤه في الحزب .

إنتاجه الادبي وفسير فن كتابه (النفس وأشكالها) و (نظرية الرواية) الى (توماس مان) الى (دراسات في الواقعية) الى (الواقعيون الالمان) ...

وفي مجال الفكر ، من كتابه (هيغل الشاب) الى (لينين) الى (التاريخ والوعي الطبقي) الى (تحطيم العقل) ...

ومؤلفه الاخير الضخم، الذي لم ينشر بعد يحمل عنوان (انطولوجيا الوجود الاجتماعي) .

في عام ١٩٦٧ صدر كتاب (احاديث مع جورج لوكاتش) ويتضمن ثمرة فكره الناضج . وقد أجرى الحوار معه عدد من مفكري ألمانيا الغربية. وهذا الفصل (المجتمع والفرد) الذي نقتطف جزءاً منه وننشره اليوم أجراه ليو كوفلر ، أستاذ علم الاجتماع في الجامعات الالمانية .

---

(١) من كتاب أحاديث مع جورج لوكاتش

Gespâche mit Géorg Luckacs . Hamburg 1967

كوفلو - سيد لوكاتش ، لقد تأثرت البارحة بالغ الأثر في الطريقة التي اتبعتها في حديثك ، إذ انطلقت من أمور بسيطة ، واستخلصت منها بعد ذلك مشكلات معقدة للغاية . أود هنا أن أنهج نهجاً مماثلاً ، وأبدأ بمشكلات بسيطة الى حد ما . .

لوكاتش - حسناً . .

كوفلو - كي انطلق منها لمعالجة مشكلات اكثر تعقيداً . لقد اثارت اهتمامي منذ أمد بعيد مسألة محددة ، وشغلتني . اصبح من الشائع ، ووفق نظرة مغرضة ، تماثل وتوحيد الايديولوجية مع الوعي الخاطىء المزيف وتوحيد الوعي الحر ، (المسمى بالحر) مع الوعي الملتزم وذلك للوصول الى نتائج ايديولوجية محددة تخدم الايديولوجية البرجوازية . وينجم عما تقدم المشكلة التالية ، ألا وهي أنه يلصق بالطبقة العاملة ، التي لا تزال تمثل نصف السكان ، تهمة انصهارها في بوتقة برجوازية ، ويرمي من وراء ذلك ، الى أن العامل سابقاً قد امتلك وعياً طبقياً مزيفاً ، وفي «برجزته» هذه ، قد امتلك وعياً صحيحاً صائباً ، بما أنه قد تبنى ، حصراً ، وعياً برجوازياً . وهذا ينطوي على تناقض . ويتجلى هذا التناقض ، بقدر ما يُعزى الى الطبقة العاملة وعي طبقي صحيح ملتزم ، وحيث بصدده يماثل ويوحد اصطلاحاً ، وفي الوقت ذاته ، بين الوعي الصحيح الصائب والوعي اللا ملتزم ليس إلا . هل ترى أن هذه التناقضات لا بد منها للايديولوجية البرجوازية ، أم أنها مجرد مصادفة ؟

لوكاتش - اسمح لي أن أعود الآن لأبسط الأمر مجدداً . اعتقد أن غرامشي كان

محقاً تماماً عندما لاحظ أننا نستعمل كلمة ايديولوجية بمعنيين جد متباينين بصورة عامة . من ناحية أولى يدور الأمر حول الحقيقة الماركسية الاولية ، التي تقول إن كل إنسان موجود في المجتمع يلقى نفسه في وضع طبقي معين ، ويتعلق بهذا الوضع بالطبع ثقافة العصر بأكملها ، وأنه بالتالي ليس من الممكن أن نلقى أي مضمون شعوري لم يتحدد من خلال الحالة الراهنة لذلك الوضع . ومن ناحية ثانية ، فانه ينشأ من طريقة طرح السؤال بعض ملابسات وتحريفات ، وقد جرت العادة على فهم الايديولوجيا كرد فعل مشوه على الواقع . لذا اعتقد انه علينا ، لدى استعمال مفهوم الايديولوجية ، أن نفرق بين هاتين الناحيتين . وعلاوة على ذلك – واعود ثانية لأبحث في المسألة الانطولوجية – ينبغي على المرء أن ينطلق من أن الانسان ، قبل كل شيء ، هو كائن متجاوب مع محيطه ككل جسم عضوي آخر ، وهذا يعني أنه يحول المشكلات الصاعدة من واقعه الى سؤالات محاولاً الاجابة عنها . أما ما يدعى بوعي حر طليق يعمل من ذاته ، بصورة صميمية محضة ، فلا وجود له على الاطلاق وليس من أحد استطاع أن يبرهن على وجوده له . واعتقد أن شأن ما يسمى بالطبقة المثقفة الحرة شأن الشعار المنادي بالبعد عن الايديولوجية والذي درج حالياً على الألسن ، وان هي الا تسميات مختلفة ، ليس لها مع الوضع الواقعي للانسان الواقعي في المجتمع الواقعي من شأن على الاطلاق .

كوفلر : بالمناسبة ، يتساءل المرء احياناً ، عن وجود ظاهرات ايديولوجية غير

متسمة بطابع طبقي ، أي ظاهرات ماثلة في البنية الفوقية ، ولم يحددها الوضع الطبقي . أنت بالذات أيها الأستاذ لوكاتش قد أكدت في مؤلفاتك تأكيداً شديداً ، ان مشكلة الايديولوجية لاتعد مشكلة تتعلق مباشرة بطبقة من الطبقات ، وانما تنتمي الى المجتمع الطبقي بكليته ، غير أنه في وسعنا مع ذلك أن نميط اللثام عن بعض ظاهرات ايديولوجية غير متسمة بطابع طبقي فعلاً ، بمعنى أن عدم اتسامها هذا ينسحب على البرجوازية كما ينسحب على الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة ، كما نشاهد ذلك مثلا في مجال اللغة وفي مجال تلك التعاريف المتعلقة بميدان التشييء بخاصة . مثال ذلك قولنا « يسيطر الفن الصناعي علينا » و « القنبلة الذرية تهدد كياننا » و « الافلاس يرفع ثمن السلع » أو كذلك « ينشأ من المجتمع الجماهيري التكتل » . — وسيعلق ماركس على هذا متهكماً « ينجم عن الفقر الفاقة » (*) على أي حال ، لايمكن تصنيف هذه الصور التشييئية اللغوية على انها تتعلق بطبقة محددة فحسب ، انما على أنها غير متسمة بأي طابع طبقي ، هذا اذا لم نقل ، انها لا تتعلق أبداً بمجتمع طبقي ، ذلك أن هذه الصور ليست سوى انعكاس موقف من المواقف في وضع اجتماعي متشيء غارق في الفتشية .

لوكاتش — سأوغل في الحديث نوعاً ما ثانية ، بما أن الحياة البشرية قائمة على

(*) ذكر في النص لفظتان مترادفتان الواحدة المانية والأخرى افرنسية لمعنى واحد وهما (Armut , Pauvreté) وذلك لتبيان سوء استعمال المفاهيم وبخاصة تحصيل حاصل . (المترجم)

أساس عملية تمثيل مع الطبيعة ، فلا جدال في أن بعض الحقائق، التي نكتسبها من جراء تنفيذ عملية التمثيل تلك ، تحظى بصحة شاملة كحقائق الرياضيات والهندسة والفيزياء وغيرها . بيد أن هذه الحقائق وسمت ، في المعنى البرجوازي ، بطابع فتشي ، ذلك أنه في إمكان هذه الحقائق أن ترتبط في بعض الأحوال بالصراع الطبقي ارتباطاً وثيقاً . وإذا جزمنا الآن ، بأن حقائق علم الفلك ليس لها طابع التعلق بالطبقات ، فجزمنا صائب . غير أن المناقشات التي دارت رحاها حول كوبرنيكوس وغاليله ، كانت تمثل لحظة من أهم اللحظات الحاسمة ، فيما يتعلق بالمفهوم الطبقي ، لمعرفة من سيتخذ موقفاً ايجابياً من غاليله أو معادياً . بما أن التبادل العضوي للمجتمع مع الطبيعة بعيد عملية اجتماعية ، فيبقى إمكان رد فعل المفاهيم الناجمة عن تلك العملية ، على الصراع الطبقي في ذلك المجتمع ، ماثلاً أمام الأعين. إنني استخدم في سياق حديثي كلمات ليست سديدة تماماً كمفهوم التطور والتقدم وما شابه ، فالتطور بحد ذاته واقعة ، نستطيع انطلاقاً منها التحدث عن لاتعلق طبقي، ولنقل مثلاً كالتحدث عن نشوء الأنواع عند داروين ؛ من جانب آخر ، نجد أن المسألة الداروينية قد لبثت موضوع نقاش اجتماعي طوال عشرات السنين . والسؤال عما إذا تطورت البشرية تطوراً وحيد النسق، أو عما إذا تطورت تطوربيئات حضارية مختلفة وخضع تطورها في كل طور لبداية ونهاية، وارتبطت تلك البيئات بمرحلة تاريخية ، لا يمكن الاجابة عنه بصورة مستقلة عن بنية الطبقات المكونة لمجتمع من المجتمعات . وهكذا

فاني أعتقد أن ثمة حدوداً متحركة ، بمعنى أن في مقدور العقل البشري ، من جهة ، تقرير أشياء بصورة غير متعلقة بكيفية تقييم الطبقات المختلفة لها ، تصلح للمجتمع بأكمله، كما من المحتمل أن تصلح لنظرتنا الشاملة في الطبيعة ونجد من جهة ثانية أن الانسان مدعو بكامل شخصيته إلى خوض النضالات الاجتماعية ، بحيث أن قبوله أو رفضه أي فرضية من الفرضيات بعد أمراً محدداً مشروطاً، وفق نظرة طبقية ، بالقوة ، أعتقد اذاً ، أننا لانستطيع القيام بتجزئة عامة مدعين : هنا تنتهي حدود الايديولوجية ، وهنا يبدأ شيء آخر . إن الأمر يتعلق بالأحرى بما هو متناسب ، بما هو واقع في مجرى التغيير ، بما يتحدد من خلال البنية المكونة لمجتمع من المجتمعات ومن خلال مستوى الصراع الطبقي المتعلق بتلك البنية ، التي لاترمي أساسها بنفسها في جملة مجردة وينطبق هذا تماماً على مايسمى بالطبقات الحرة الطليقة . من البديهي أنه توجد بلا جدال في المراحل ـ ولنقل الهادئة وغير المتأزمة ـ مواقف قد تتخذ فيها طبقة ما اتجاهاً حيادياً للغاية حيال الصراع السائد آنذاك . لكن اعتقد أني استطيع القول ، بهذا المقدار من الجلاء التام ، بأنه ليس في الامكان أن نجد إنساناً في المجتمع ، نحكم عليه مسبقاً ، أنه سيسلك سلوك اللا مبالي حيال الفروق الطبقية الممكنة كافة . ولاشك أن مايكون تنوع التاريخ ولا بدعه على وتيرة واحدة هو امكان حدوث اللا مبالاة وإمكان عقد تحالفات هي ابعد من ان تصدق او تتوقع . فأنتم تذكرون بلاريب ان الارستقراطية المحافظة عارضت

البرجوازية لدى قيامها باصلاحات عمالية في النصف الأول من القرن التاسع عشر في انكلترا وجعلت تخفيض ساعات العمل ، ممكناً. اما استنتاجنا الآن ، ان الارستقراطية كانت مهتمة طبقياً بتخفيض ساعات العمل ، يعتبر استنتاجاً فضفاضاً مبالغاً فيه ، على الرغم من أن هذه الواقعة ليست واقعة فحسب ، انما تمثل موقفاً سهل الفهم وقفته الطبقة الارستقراطية في مناخ الصراع الطبقي ، الذي كان سائداً آنذاك . أرمي من وراء ذلك ، أنه علينا أن نتمسك بالمبدأ الجدلي القائل إن الحقيقة هي شيء مشخص ونحافظ عليه لدى لبحث في مفهوم الايديولوجية أيضاً .

* * *

كوفلو – إن إشارتك إلى الاستسلام تجاه التلاعب والمناورات يذكرني بفقرة في دراستك التحليلية حول توماس مان (Mann) وعلاقته بالأديب رابه (Raabe) ، حيث تتحدث عن أبطال يعيشون على هامش الحياة ...

لوكاتش – أجل ...

كوفلو – ... أبطال أو أشخاص يعيشون على هامش الحياة ، ويحاولون عبثاً ، في خضم صراعهم ، اقتحام العالم الشاسع والنفاذ إلى داخله .

لوكاتش – أجل ...

كوفلو – ينجم عنه اعوجاج على الصعيد الانساني . وأفضل القول ، موجهاً أنظاري شطر العالم الراهن : ظهور التشيع . ونصادف في وقتنا الحاضر عدداً لابأس به من أمثال هؤلاء الأشخاص ، الذين يبذلون مافي وسعهم للقيام بذلك الاقتحام ...

لوكاتش ـ أجل . . .

كوفلر ـ لكنهم ، إنما يلبثون في عالم أحلامهم . .

لوكاتش ـ أجل . . .

كوفلر ـ . . . لأنهم يسيئون فهم التغيير التاريخي ويستوعبونه على نحو دوغماطي ويتزلون اللائمة على الآخرين لحياتهم . .

لوكاتش ـ أجل . . .

كوفلر ـ . . وإما أنهم ، خلاف ذلك ، يحاولون استخلاص نفع شخصي ما ، من الوضع البرجوازي ـ الرأسمالي ، تحت عنوان نشر الديمقراطية والمناداة بحياة انسانية .

لوكاتش ـ أجل . .

كوفلر ـ . . ونراهم في نهاية المطاف يذعنون للواقع ويظهرون اعوجاجاً على الصعيد الانساني ، مماثلاً للاعوجاج الذي أظهره المناوئون المزعومون

لوكاتش ـ أجل . . .

كوفلر ـ والآن يطالعنا السؤال : أليس التشيع[1] ظاهرة ترافق عهد متأزم ،

---

(١) Sektierertum الانتماء الى طائفة من الطوائف أو فرقة من الفرق ، التشيع. وحسب الحزب الماركسي ـ اللينيني تعني الكلمة نهج سياسة ، في خضم الحركة العمالية ، لاتمت إلى الجماهير العاملة بصلة ولا تعمل على مستوى نضجهم ، بل هي دغمائية متحجرة مقنعة بعبارات شبه ثورية ، مبتعدة عن المواقف الاساسية والمبادىء الأصيلة لترفع علم كفاح الاصلاح المزعوم . من مظاهرها الوقوف وقفة الرفض من قضايا الكادحين وعداء أهل الفكر والطبقة المثقفة والحط من قيمة العمل المشترك مع قوى الشعب الديمقراطية والمعادية للفاشية ، والقيام بتصرفات مناورة شبه ثورية ، فوضوية ، ونفي امكان اتباع الطرق السلمية لتحقيق الاشتراكية ، ونفي امكان التعايش السلمي والدور المحدد الهام الذي يقوم به النظام الاشتراكي في العالم في العصر الحديث .

(المترجم)

تبرز فيه مع ذلك أمور جديدة : أولاً ، ألا يعدّ تشتت القوى ، التي تظن بأنها تقدمية ، والتي هي من أصل برجوازي كما من أصل اشتراكي ، ضرورة نابعة من الوضع المتأزم لخلق قوى تقدمية ؟ ثانياً ، ألا يحتمل أن ينطوي التشبيع على فعالية تاريخية تتجـــلى في المستقبل ، بحيث ينجم عنها شيء جديد ، يمكن المرء تكهنـه من خلال منظور تاريخي - نظري ؟على هذا النحو تبدو لي قضية الأبطال أو الأشخاص الذين يعيشون على هامش الحياة في العصر الحاضر .

لوكاتش - كلما قلّ وقوع حركات هامة حقاً ، كلما ازداد شأن التطور وشأن الأخطاء أيضاً ايجابية . واليوم نرى بوضوح تام ، أن آراء **فوريه** (Fourier) ، التي بموجبها يتحول العمل إلى ضرب من اللعب، **هي** خاطئة تماماً . على الرغم من ذلك ، نجد أن هذا الموقف **الطوباوي** المفكر فوريه ، والذي نشاهده على أي حال قبل فوريه في النظرة الجمالية عند شيلر (Schiller) ، قد لاقى صدى ايجابياً تجاه التمجيد الأعمى للعمل الرأسمالي في تلك الآونة . ولم يلق ذلك الموقف معنى سلبياً ، إلا بعد أن وجد ماركس السبيل الصحيح . ومن المفروغ منه أن يكون اليوم للمحاولات المختلفة ، الموجهة ضـــد التلاعب والمناورات (لا يتضمن هذا المحاولات برمتها) مرمى حسن . إنني لم أطالع بعد المقالة المنشورة في العدد الأخير من مجلة « الأزمنة الحديثة » ، وهي عبارة عن دراسة نقدية حول تيار **دي شاردان** (Chardin) ، لكن مايثير الاهتمام ، هي أنها تعرضه كايديولوجي التلاعب والمناورات . وتقوم بالفعل بين آراء تايار دي شاردان وبين

مذهب المناورات الوضعي الجديد – إن صحّ التعبير – علاقة جد وثيقة . وأود أن أكرر قول هيغل ، إن الحقيقة هي أمر مشخص. فمن الممكن أن نلقى متشيعين يقومون بدور ايجابي في وجهة معينة ، وأن نلقى متشيعين آخرين لايزال يتسم عملهم حتى الآن بطابع السلبية .

كوفلر – سيد لوكاتش ،ليس في ودي أن أمعن في طلب الكثير ، لكن لعله يمكنني طرح سؤال آخر . يرتبط كذلك الأمر بملاحظات نقدية كانت موضع اهتمام حلقة دراسية كنت أشرف عليها . ففي منتصف المجلد الأول لمؤلفك « علم الجمال » تكتب في سياق حديثك عن مسألة الانعكاس ، عن الواقع الموحد .

لوكاتش – أجل ...

كوفلر – البارحة طرق هذا السؤال ، والآن تعترضنا المشكلة التالية . ففي كتابك « التاريخ والوعي الطبقي » ، الصادر عام ١٩٢٣ ، تبين كيف أن الفلسفة الكلاسيكية تربط امكان معرفة الواقع بعملية « احداث » ذلك الواقع . وفي سياق نقدك لهذه الفلسفة تظهر بحق أن مشكلة امكان معرفة الواقع لاتحل إلا إنطلاقاً من أرضية مفهوم الممارسة الاجتماعية ، وباهمالنا مفهوم « الممارسة » تلبث المشكلة مستعصية . وإليك الآن السؤال : ألا يتعلق هذان المعنيان « للأحداث » ، المعنى المعرفي الفلسفي والمعنى الاجتماعي ، بمجالين في الواقع متباينين ؛ فالمعنى الأخير يتعلق بما يسمى بالانتاج بينما الآخر يتجه شطر موضوع العلوم الطبيعية والرياضيات ؟ إن عرضك

لهذا المفهوم ليبدو وكأن لا وجود لشرخ بين المعنيين . لكن المرء بالواقع قد ينقد ما تقدم ملاحظاً ، أننا نعمل هنا على صعيد مفهومين متباينين « للاحداث » .

لوكاتش - عليّ أن أشير بادىء الأمر ، الى أني أعتبر كتابي « التاريخ والوعي الطبقي » ، كما تعلم على الأرجح ، كتاباً تجاوزته فكرياً ، وبالتالي فان هذا الاستنتاج الماثل في « التاريخ والوعي الطبقي » لا يمت إلى المشكلات المطروحة في « علم الجمال » بأي صلة . أما حول ما يتعلق بوحدة الواقع واحداث ذلك الواقع ، فأقول إن الواقع هو موحد ، بمعنى أن جميع الظاهرات المنبثقة عن هـــذا الواقع - سواء أكانت عضوية أو لاعضوية أو اجتماعية - يتم انبثاقها بحسب سلسلة سببية محددة وضمن عقد محددة مصحوبة بأثر متبادل داخل العقــد ، وبأثر العقد المتبادل بعضها مع بعض . فالهوية هي واقعة ماثلة . بيد أني أعتقد - وقد حاولت تبيان ذلك في كتابي حول هيغل - أن إحدى الابتكارات في مجال الجدلية التي كوّنها هيغل تكمن في أن وحدة الأضداد لا تعد المبدأ الأساسي في الجدلية ، إنما فيما يدعوه هيغل هوية الهوية واللاهوية . والآن أرى ، أنه يوجد واقع موحد ، أي هوية لا تخرج عن المجرى السببي للواقع ، المجرى المستقل عن أي تدخل بشري . وينجم عن ذلك بادىء الأمر ، أن هذه الوحـدة تتجلى عبر أشكال الواقع الثلاثة المتباينة في صور مختلفــة . ففي ميدان العمل يتم الاحداث بالطبع ، بمعنى أن من يعمل يضـع هدفاً غائياً ، يسعى إلى تحقيقه ، ومن خلال قيامه بذلك ، من الممكن أن ينشأ شيء جديد مبتكر . ليس من الضروري أبداً أن

نذهب بعيداً ونفكر في علم الذرة . ففي الطبيعة ، كما نعرفها ، لا وجود لعجلة ، بينما نجد أن البشر قد أقدموا على صنع العجلة في مرحلة مبكرة من تطورهم نسبياً ، وهذا الصنع يعني تركيباً جديداً بالنسبة لما هو في الطبيعة . ومن جوهر الاختيار الغائي أنه يدع السلسلة السببية الماثلة في الطبيعة تعمل وفق تنسيق آخر ، كان الأمر يحصل بدون ذلك الاختيار ؛ بيد أنه يمكن معرفة العلاقات السببية الموجودة واستخدامها ، غير أنه لا يمكن تغييرها . يقول هيغل ، في مؤلفاته الأولى ، في العمل ، وقوله جد صائب ، إن الانسان ، مستعيناً بأدواته ، يدع الطبيعة تعمل على صنع ذاتها بذاتها ، بحيث أنه يكمن في عملية الأحداث هذه هوية الهوية واللاهوية ؛ ذلك أن العجلة تعدّ حقاً شيئاً جديداً صنعه الانسان ، على الرغم من أنه ليس من شيء في العجلة يتعارض مع السلسلة السببية التي لا تتعلق بالانسان والسائدة في الطبيعة . من المحتمل ، ألا يكون في وسع الانسان صنع عجلة قطعاً ، إذا لم يكن قد أدرك ذلك بطريقة من الطرق ، باعتبار أن هذا الصنع هو عملية معقدة لا تتناقض مع وحدة الواقع . وعندما أعود الآن إلى التحدث عن وحدة الواقع ، متخطياً هذه الاشكال البسيطة إلى أشكال أرفع يجول في خاطري ماقلته آنفاً حول المسألة الدينية ، ذلك أن الحوادث الطبيعية على سبيل المثال — سواء أكانت الطبيعة عضوية أو لاعضوية — تجري وعملياتها تتم ، وفق جدليتها الخاصة بها ، بصورة غير متعلقة بتدخل الانسان ونزعته الغائية . وهكذا فان تكوّن

بنية الانسان الفيزيولوجية وبنيته النفسانية أيضاً يعد صدفة من الصدف على الصعيد الاجتماعي . وأرى أن ماركس قد تحدث ذات مرة بحق ، انه من قبيل الصدفة ، أن تجد الظروف الثورية أشخاصاً يقودون الحركة العمالية ، مع أن هذا لم يعد مجرد أمر بث إلى الجانب الفيزيولوجي أو السيكولوجي بصلة . على الرغم من ذلك ، فالمصادفة تلبث ماثلة ولا يمكن تجنبها وإلغاؤها ، وهي تنبع بالتأكيد من مجرى حادثة طبيعية يخضع لمبدأ السببية الصرف. وفيما يتعلق بهذا نجد أن الطبيعة الموحدة تقف قبالة الممارسة الاجتماعية ، وعندما أسعى إلى القيام بأي عمل أو نشاط اجتماعي ، يتوجب عليّ بالتالي معرفة القوانين الطبيعية ومعرفة نفسية الانسان وغيرها ، وهكذا ألقى ضمن هذا التركيب المعقد علاقات قانونية لها فعاليتها وليس من سبيل إلى الغائها ، انني استطيع ، مطلقاً من المعرفة التي أملكها ، أن أؤثر بعض التأثير في الواقع الخارجي لتغيير وجهه ، بيد أن القوانين ، الذي يسير هذا الواقع بموجبها ، لها فعاليتها بدون تدخلي . وعلى هذا المستوى وضمن هذه العلاقة ، أقف وقفة منتج في ميدان الاقتصاد أوفنان أو فيلسوف ، قبالة الواقع الموحد . وأكرر أنه يجب أن نفهم هذه الصلة الموحدة على أنها هوية الهوية واللاهوية .

كوفالر - كيف يتفق ما أدليت به مع قول ماركس في « المخطوطات الاقتصادية الفلسفية » ، إن الطبيعة ليست بشيء بدون البشر؟

لوكاتش – لاريب أني سأحوّل شذرات معرفية براقة إلى اسوداد مبتذل ، إذا زعمت ، أن الطبيعة ، التي ترعرع في كنفها الانسان ، إثر مصادفات متباينة ، ليست بشيء من دون هذا الانسان ، وفق وجهة النظر هذه . بيد أن ماركس لم يكن يعني أن الكرة الأرضية موجودة ، لأن الانسان موجود له فعاليته ، وأن الكوكبين المريخ والزهرة لن يوجدان ، إذا لم يعش البشر على سطحيها ، لذا نرانا إزاء مفارقة في الصياغة خطها ماركس الشاب ، لدى تعمقه في بحث فكرة الضرورة الأبيقورية ؛ ذلك أنه اذا افترضنا أن الآلهة تقطن في عالم يتوسط العوالم الأخرى ، فهذا يعني بالتالي أيضاً ، أن ليس في امكان البشر أن يؤثروا في الطبيعة تأثيراً يقلبها إلى هيئة أخرى ، إلا في نطاق الممارسة الانسانية ، عدا هذا فالطبيعة تتطور بالطبع بصورة مستقلة عن الانسان استقلالاً تاماً . اني لاأعتقد أن ماركس قد يحيد عن هذا التفسير .

كوفلر – بالتأكيد ، ويجب أن تفهم الفكرة أيضاً على هذا النحو ، أود الآن أن أعود إلى أصل السؤال ، لأدلي بآخر ملاحظة لي . إن هيغل يربط أحداث الواقع من قبل العقل الكلي المطلق بشكلة الأحداث في الميدان الاجتماعي ، كأنّ هاتين البرهتين يقعان على مستوى واحد . ألا ينبغي ، والحالة هذه ، أن نقيم فاصلاً بين البرهتين ، كي يتجنب المرء أي ضرب من ضروب الابهام أو سوء الفهم ؟

لوكاتش – ألا انظر ، أود هنا أن أعرب عن شكوكي فيما يتعلق بأهمية

الأسئلة ذات الصبغة المعرفية (العائدة إلى نظرية المعرفة) . وأخشى أن يبعث هذا النوع من الأسئلة الابهام فينا والالتباس ، إذا لم تنظر إليها من وجهة نظر انطولوجية كجزء من القضايا الانطولوجية ، وإلا فنلحظ تشابهاً حيث لايوجد تشابه ، ولاتشابهاً حيث يوجد التشابه . فعلى المرء أن يحذر كل الحذر لدى معالجته هذه الأمور معالجة معرفية . سأذكر الآن واقعة هامة وهي أن الفرق ، بحسب التفكير الكانطي ، يزول بين (الظاهرة) و (الشيء في ذاته) ضمن مجال الواقع الذي هو حقيقي بالنسبة إلينا ، ذلك أن العالم المعطي ، حسب كانط ، ليس سوى الظواهر مع شيء في ذاته متعال لايمكن ادراك كنهه . خلاف هذا نجد أن الواقع عند هيغل ، يتضمن ماهية موجودة حقاً (الشيء في ذاته) ومن عالم الظاهرات ، الذي يجد واقعاً بالفعل بدوره . ومجرد قولنا هذا يعني ، أن المرء هنا لايستطيع أن يلمس سوى تراث فكري قائم على نظرية المعرفة . وعندما أتحدث عن مفهوم الاحداث ، بحسب التفكير الماركسي ، فلا أفهم بالطبع تحت هـــذه الكلمة سوى ثمار العمل ، العمل في مفهومه الواسع ، فالأحداث يظهر كأنه ...

كوفلر – احداث المجتمع ...

لوكاتش – أجل ، لكن عملية الأحداث تتم تبعاً لانتشار توزيع العمل، وتبعاً للاصطفاءات الغائية التي تزداد تعقيداً مع مر الزمن ، والـــتي تنهض على الاصطفاء الغائي الأولي ، مشكلة نظاماً منقطع النظير

لمختلف ألوان الاصطفاء الغائي . واذا جدّ أحدهم وحاول تحليل المجتمع تحليلاً صائباً ، سيخرج في نهاية الأمر ، وكما اعتقد بنتيجة مفادها ، أن الذرة المقوّمة للمجتمع تتمثل حقاً في الاصطفاء الغائي الفردي . على الرغم من ذلك ، فان تركيب هذا المجتمع لم ينشأ أبداً بصورة غائية ، وينبغي علينا أن نعدّ دائماً وأبداً كل مرة يتم فيها بيع سلع أوشراؤها ، اصطفاء غائياً ، فعندما تقوم امرأة السوق وتبتاع خمس اجاصات ، يتسم عملها هـذا بطابع اختيار غائي . بيد أن هذه الآلاف من ألوان الاصطفاء الغائي ، الماثلة في السوق تنشيء سببية تسود في السوق وترتبط بحلقات سببية أخرى تسود في أسواق أخرى بحيث أن الفعالية لاتكمن إلا في النتائج السببية القائمة على ألوان الاصطفاء الغائي الفردي . إنما لبرهة من برهات الموضوعية والقانونيـة ، كامنة في الوجود الاجتماعي ولا يمكن الغاؤها ؛ ذلك أن حصيلة ألوان الاصطفاء الغائي الفردي ، التي تكون ذلك الوجود الاجتماعي ، تتمثل في أشياء مغايرة تماماً ، لما ينطوي عليه ذلك الاصطفاء من مقاصد .

كوفلر : تحدثنا بالأمس عن هذا الموضوع ..

لوكاتش : ولنقل على سبيل المثال ، إن معدل الربح الوسطي يولد من السعي خلف ربح اضافي ، ومن ثم فان هذا السعي المبذول للحصول على فضل ـ الربح يتحقق في مختلف أشكال الاصطفاء الغائي الفردي ، لابل يتحقق ايضاً فضل ـ الربح بالذات بصورة مباشرة . بيد ان أعراض معدل الربح الوسطي تبرز مع ذلك ، كعملية شاملة ، ضمن التطور

بأكمله . انطلاقاً من هـــذه النواة علينا أن نبحث مشكلة الحرية والضرورة في المجتمع في الوجهة الفلسفية . وبصدد هذا أرى أنه من الأهمية بمكان – وهذه مشكلة لم تعر الاهتمام الكافي على الاطلاق في الميـــدان الفلسفي – أن ننظر الى السببية والغائية كشكلين منفصلين ، الواحد يتواجد الى جانب الآخر ، غـــير متعلقين ، من أشكال الحتمية . وقد وجد زمن أنكر فيه العامل الغائي بكل بساطة ، بينما يمكن القول ، ان لا وجود سوى لسببيته ووجودها هذا هو وجود مستقل ، بالاضافة الى الاصطفاء الغائي في ميدان الوجود الاجتماعي ، بيد أنه لايمكن أن يقوم للاصطفاء الغائي قائمة إلا في عالم تسوده الحتمية على نحو سببي . في وسعك ان تلمس في هذا المقام ، ما أردت أن أقوله سابقاً ، عندما أكدت ، انه بامكاني ، على صعيد نظرية المعرفة ، اعتبار السببية والغائية كعلاقات مستقلة عن بعضها ، أما اذا شرعت بتحليلها تحليلاً انطولوجياً ، فتتراءى لي عندها أمور تناقض بعضها ظاهرياً . فالغائية غير قابلة للاستيعاب ، إلا ضمن إطار سيادة السببية من جهة ، والا عندما نعي أن أشياء وأشكال وارتباطات جديدة لا تتجلى في المجتمع الا تبعـــاً للاصطفاءات الغائية من جهة ثانية . يبدو ان الأمر ينطوي ، على صعيد نظرية المعرفة ، على مفارقة كبرى ، غير أنك اذا نظرت اليه ، من الوجهـة الانطولوجية ، لظهر كتحليل بسيط لمفهوم العمل .

كوفاتو : صحيح تماماً . وقد عمدت الى هذه المقاطعة تجنباً لوقوع ملابسات جديدة تتعلق بمفهوم الاحداث ليس إلا . . .

لوكاتش : ... أجل ، أجل ...

كوفلر : ذاهبة الى ذلك ، وكأنك لاتريد أن تفهم تحت مفهوم الاحداث سوى العمل ، لكن ...

لوكاتش : أرى ، ان العمل ...

كوفلر : له طابع الأولوية .

لوكاتش : ألا انظر ، انطلاقاً من مفهوم العمل ينشأ مثلاً مفهوم تنسيق العمل وينشأ مفهوم الاستعداد الفكري للعمل وهكذا دواليك . فاذا استمرت هذه العملية في تطورها كتوزيع للعمل الاجتماعي ، ينشأ علاوة على ذلك التراث الفكري والاستنتاجات النابعة منه . وفي مرحلة أبعد ينجم عن ذلك القوانين ، وكل حـــكم من الأحكام القانونية يعد حكماً غائياً ايضاً ، ويحوي كل نص قانوني يكمن في أن أقول : أريد سجن فرانتز مولر مدة ثلاثة أشهر لكونه قد سرق صندوقين . وليس من الممكن أن نجد أي نص قانوني لايعود الى حالة من الحالتين : إما يعد هو ذاته حكماً غائياً ، وإما أنه يحتوي على مدخل الى أحكام غائية . وهكذا أرى أننا لانستطيع أن نمر مرور الكرام بالمشكلة المتعلقة بالأحكام الغائية ، حتى لدى بحثنا في أعلى شكل من أشكال العلم والفن .

الرأسمالية والعلوم والتكنولوجيا (١)

بقلم : جوزف ستانيل
ترجمة : عصام الخفاجي

١ — الرأسمالية تعيق التقدم :

يمكن ايضاح هذه العبارة بالحقيقة القائلة انه هناك العديد من « الأشياء الجيدة » التي يمكن القيام بها غير أنها لا تتم في الواقع لأنها غير مربحة . فقد سيطر معيار الربح على مجال استغلال كميات كبيرة من الامكانات الطبيعية للانتاج خلال الأزمة الاقتصادية الكبرى The Great Depression وأدى ذلك في السنوات الأخيرة أيضاً — وان كان على نطاق أقل — الى تبديد امكانات الولايات المتحدة . لقد بينت (٢) قبل فترة بأن الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات يعود الى نمو

---

(١) مترجم عن كتاب Socialism , Capitalism & Economic Growth , Essays Pesentel to Mourics Dobb , Cam bridge University Pess , 1967 المقال بعنوان : Capitalesim , Seince and Technology : Joseph Steindl

(٢) جوزيف ستانيل : (النضج والركود في الرأسمالية الامريكية) Meturity & Stagnationin American Capitalism ,Ox ford ,1952

الاحتكارات في داخل الرأسمالية الحديثة مما أدى الى تفاقم الخوف لدى المستثمرين، واحجامهم عن استثمار رؤوس أموالهم . ثم أضفت مؤخراً[٣] ملاحظة جديدة، مفادها ان المؤسسات الكبرى هي الأكثر ميلاً الى التضحية بما تتوقعه من أرباح كبيرة اذا كانت هذه التضحية تؤمن ضماناً اكثر للمؤسسة . وهذا يعني بأن المؤسسات الكبيرة ستستثمر نسبة من أرباحها المتراكمة أقل من نسبة ماتستثمره المؤسسات متوسطة الحجم من أرباحها المتراكمة لأن الأولى أقل ميلاً الى توريط نفسها . إذن ففي الرأسمالية الحديثة . حيث أصبحت حصة المؤسسات الضخمة كبيرة جداً ـ نجد ان الدافع للاستثمار قد تقلص بالمقارنة مع الحالة في القرن التاسع عشر . فالاتجاهات الموجهة عادة الى حافز الربح يجب تعديلها وتكييفها بحيث تتطابق مع « تفضيل الأمان » اللازم للرأسمالية المعاصرة .

ان تقليص الاستثمارات يعني ـ في جميع الأحوال ـ الابطاء في نشر الابتكارات والانهماك في ضمان الأمان الذاتي للمؤسسة على حساب الوسائل الحديثة والمنتجات الحديثة ، وهذا يؤثر بالدرجة الأولى على البحوث والتجارب لأنها غير مضمونة . هذه « الفرامل » اذن تعطل التقدم التكنولوجي .

٢ ـ تحرر الرأسمالية القوى المنفلتة للتطور التكنولوجي :

يوصف استغلال المواد الطبيعية القصير النظر والغافل عن النتاج ، يوصف بالألمانية بعبارة مناسبة « Raubbau » (الاستغلال الجشع) . وان تاريخ الرأسمالية ما هو إلا تتابع لأشكال ونماذج متنوعة من هذا « الاستغلال الجشع »

(٣) جوزيف ستانيل : (حول نضج الاقتصاد الرأسمالي) ، ضمن مجموعة مقالات على شرف Kalecki « On Maturity Economics » Warsow 1965

بمعناه الواسع . لقد ركز ماركس على حالة من الـ « Raubbau » هي استغلال الكائن الانساني دونما اعتبار لكرامته وحالته الصحية ودون اعتبار التحولات الاجتماعية التي تحدث بسبب هذا الاستغلال . ان هذه العبارة تطلق في الأصل على انهاك الموارد الطبيعية كالغابات والأراضي الزراعية وأراضي الصيد وهذا يؤدي الى مفهوم أوسع هو تدمير الموطن الطبيعي للانسان بتلويث المياه والجو واقلاق الحياة الحيوانية والنباتية وتخريب القيم الجمالية للطبيعة . وهـذا يقودنا بدوره الى مفهوم أعمق هو تغرب الانسان Alienation لا عن موطنه الطبيعي فقط بل عن ذاته . ويظل ذلك مستمراً طالما استبدلت العلاقات الانسانية بعلاقات ميركانتيلية أو بيروقراطية .

فالاتهام الموجه الى الرأسمالية هو أنها تستغل امكانات العلم والتكنولوجيا بقصر نظر ، دون الالتفات الى عواقب هذا الاستغلال حتى حين يمكن التكهن بتلك العواقب . فالرأسمالية تعمل بسرعة جنونية لكي تحول المعارف الجديدة الى نقود وقبل ان يتم ضبط دقتها أو تزويدها بما يقي من الشرور التي قد تنشأ عنها . فهي تصر على صنع الطائرات التي تفوق سرعة الصوت ، وأكوام السيارات والعقاقير المسكنة ، والأدوية التي يحاط تركيبها بالسرية ، والاطعمة المغشوشة .. والضجيج .

٣ ـــ تناقض

يبدو ان هناك تناقضاً بين كون الرأسمالية تشكل عائقاً للتقدم وبين سرعتها الجنونية في الاستغلال . إلا ان هذا التناقض يمكن تفسيره اذا ماتذكرنا بان الرأسمالية تمر بعدة مراحل .. فالسرعة الجنونية في الاستغلال وتهديد الاساس

الذي ترتكز عليه الموارد الانسانية : العمل انما هي من سمات الثورة الصناعية ـ أما « الفرامل » فقد ضُغطت في مرحلة الاقتصاد الناضج في فترة ما بين الحربين .

ماذا عن الفترة الحاضرة؟ إن الاتهامين لا يزالان قائمين نوعاً ما . ويمكن تفسير التناقض كما يلي: تعمل الرأسمالية بسرعة جنونية عندما تقوم باستغلال بعض الابتكارات العلمية والتكنولوجية المربحة استغلالاً تجارياً . إلا انها لا تقوم في الواقع إلا بدور ضئيل في تحفيز وتشجيع هذا التطور الذي ما كان ليستمر لولا وجود عامل الحرب وسباق التسلح .

علينا أن نعترف – مهما كان ذلك مراً – بأن نسبة كبيرة جداً من التطورات التكنولوجية الرئيسية التي طرأت في العقود الأخيرة إنما كانت نتيجة للحرب الأخيرة ، او لسباق التسلح فيما بعد الحرب . ولولا هذا السبب لما كان بالامكان ان تظهر الى الوجود الطاقة الذرية والرادار والحاسبات الالكترونية والطائرات النفاثة والصواريخ ومغامرات الفضاء .

تبلغ نسبة مساهمة الدولة في تمويل البحوث ٦٦٪ في الولايات المتحدة ٦١٪ في بريطانيا ، ٧٨٪ في فرنسا . (الارقام تعود الى ١٩٦١) والنفقات المتزايدة لتمويل البحوث لا تناقض ما ذهبنا اليه من ان المشاريع الخاصة تعارض الارتباط بمغامرات خطرة . غير ان هذه المعارضة تتضاءل إذ تأخذ الحكومات على عاتقها تمويل الجزء الأكبر من هذه البحوث .

إننا لانبالغ إذ نقول إن قسطاً كبيراً من التطور العلمي والتكنولوجي انما يعود الى الحرب . ورغم ان الحال كانت كذلك دائماً إلا انه لم يظهر بمثل هذا الجلاء إلا في العقود الاخيرة . ولا يمكن الاستغناء عن النفقات الضخمة للبحوث ـ كما سنبين ـ من أجل النمو الاقتصادي . كما ان الرأسمالية التي يقتصر

دورها على كونها منظما enterpreneur خاصا غير قادرة لوحدها على ان تقدم الحوافز للابتكارات التكنولوجية كما يبين ذلك دورها الهزيل في تمويل البحوث . ولكن لماذا لايمكن ان تحقق النتائج المرغوبة من اجل حياة آمنة إلا في ظل الحرب؟ إن هذا يعود إلى ان الحرب هي الفرصة الوحيدة التي يمكن للنظام الرأسمالي ان ينتج من خلالها جهودا جماعية مخططة ومنظمة ولايبدو ان هناك امكانية أخرى للوصول الى هذه النتيجة (١) ومنذ الحرب يتقهقر المجتمع نوعاً ما إلى اشكال اكثر بدائية ـ نظام قبل رأسمالي Pre-capitalistic كتلك التي كانت قائمة في المستويات البدائية لتأريخ المجتمعات . ان هذه الأنماط الأكثر بدائية تُستغل بفعالية كبيرة وعلى أسس عصرية لتحقيق أهداف وغايات معينة . ويبدو أن سباق التسلح الذي يستهلك أموالاً طائلة يحقق جزءاً من هذه الروح الجماعية في بعض المجالات على الأقل .(٢)

ان دور الحرب في تحقيق التقدم العلمي لايضاهيه إلا دورها في الوصول إلى درجة عالية في الاستخدام . ان رأسمالية الثلاثينات قد تغيرت جذرياً إثر نشوب الحرب فقد أخذت الطاقات المعطلة مكانها في الأعمال التي خططت لها الحكومة . فهذه الأشكال التعاونية للتنظيم رغم أنها تظل بغيضة بالنسبة لعقلية رجال الأعمال إلا أنها تستخدمها حين تصل المسألة الى حافة الحرب أو التوتر

---

(١) وصل العداء للاعمال الجماعية في البلدان الرأسمالية الى درجة انعدام التوازن بين العرض الوفير للسلع والحاجة في قطاع الاستهلاك العام . راجع Galbraith, The Affluent Society . الفصل :

(٢) لقد أدرك ستالين هذه الحقيقة في أواخر الأربعينات حيث كان يكرر في خطبه بأن تلويح العالم الرأسمالي بخطر الحرب لم يكن جديا وانما كان مناورة سياسية لتحقيق نوع من التضامن بين مواطني العالم الرأسمالي . (المترجم)

المستمر – إذ يكفي وجود ظل لحرب شاملة ليقوم بمهمة الحرب الفعلية – ولكن الرأسمالية تعجز عن اتباع هذه الأساليب التعاونية – أو بعبارة أدق غير راغبة في استعمالها من أجل محاربة وجود الأحياء الفقيرة والبؤس والمرض والجهل. ولا داعي هنا لتفسير كيف أن الانفاق على التسلّح يساهم في الاستخدام الى حد كبير في الولايات المتحدة. إن نسبة كبيرة الى الناتج الوطني الاجمالي (وصلت الى حوالي ١٠ ٪ في السنوات الأخيرة) قد استخرجت من اقتصاد السوق عن طريق فرض الضرائب على الأرباح. وعند هذا الحد يمكن حل المعضلة التي طرحها كينز حول موازنة مدخرات الأثرياء بواسطة النفقات الاضافية. كما أن زيادة النفقات الحكومية تزيد من امكان استخدام قطاع المؤسسات الخاصة ويحفز الاستثمار في هذا المضمار.

لقد أضحى وجود الحرب أو احتمال نشوبها من الأهمية للرأسمالية الحديثة لدرجة أن المرء بات يشك في امكان سير هذا النظام بمثل هذه الحيوية دون الحرب يجب تأمل هذه العبارة بالنسبة لأوروبا الغربية حيث أن الأفكار الكينزية ومابعد الكينزية قد استخدمت الى مدى بعيد في ظروف السلم. فالقوة الدافعة لسياسة الاستخدام الكامل هنا هي الخوف من العدو السياسي أكثر منه خوفاً من العدو العسكري[1].

٤ – دور التقدم العلمي في النظام الرأسمالي

يبدو التناقض الظاهري بين الاتجاهين الموجهين للرأسمالية في الشكل التالي أيضاً: فهي تميل من ناحية الى تطبيق نتائج المعارف الجديدة بأسرع مما يجب

---

(١) Theodor Prager, (Wirtschafts wunder oder keines) فينا ١٩٦٣

وقبل ان يتم تدقيقها بصورة كافية ودراسة ما تحتويه . واوضح مثال على ذلك هو عقار الثاليدوميد Thalidomide ومن ناحية اخرى نرى ان الصناعة بطيئة في استغلال المعرفة المتزايدة والمتراكمـــة من التطور العلمي . يشير الدكتور برنال (١) J . D . Bernal الى ان فـــترة الخمسين عاماً ما بين اكتشاف فاراداي Faraday المغناطيسية الكهربائية وبين تشييد اول محطة للطاقة في شركة اديسون للاضاءة الكهربائية في نيويورك انما حددتها العوامل الاقتصادية بدرجة رئيسية . وهذا بانه كان من الممكن ان يتم التطور بصورة اسرع لو ان الطلب على التيار الكهربائي لأغراض الاضاءة قد امكن التنبؤ به ولازداد عرض الطاقة الكهربائية في الوقت ذاته وفي الفترة الأخـــيرة تأخر تطوير الفلورسنت والتلفزيون بسبب المصالح المترسخة .

استناداً إلى هذه التجربة وما شابه يمكن المرء ان يبيّن ـ كما فعلت في كتاب « نضج ور كود الرأسمالية الامريكية » بأن هناك دائماً احتياطياً من المعارف العلمية غير المستغلة والتي تنتظر التطبيق . على انني كنت مخطئاً ـ كما أرى الآن ـ في استنتاج ان الابداعات الجديدة لا تؤثر على استعداد المؤسسات للاستثمار . فالابتكارات ذات الاهمية للمؤسسات هي تلك التي تعد بمردود سريع فقط . وهي من الندرة بحيث ان ظهورها يؤثر على الاستثمار . واستناداً الى تقرير مؤسسة ـ Mc Graw Hill ـ لعام ١٩٥٨ فان ٣٩٪ من المؤسسات الكبيرة كانت تتوقع تغطية مصاريف البحوث والتطوير في اقل من ثلاثة اعوام ، و ٥٢٪ من المؤسسات الكبيرة توقعت تغطيتها فيما بين الثلاثة اعوام والخمسة اعوام .

(١) العلوم والصناعة في القرن التاسع عشر ، لندن ، ١٩٥٣
(Science and Industry in the 19 th . Century)

ان ضعف الرأسمالي في مواجهة العلم اذن تكمن في إنه يتوقع مردوداً مربعاً ولا يستطيع الانتظار او المخاطرة الى ابعد من نقطة معينة مما يسبب اهمال العديد من المشاريع ذات الاهمية الاجتماعية الملحّة كما ان ذلك يمنع الرأسمالي من اتخاذ موقف مسؤول تجاه الآثار والمضمونات العرضية للابتكار (يمكن ان نسميها « اللاقتصاديات الخارجية » «external non - economies») .

٥ — قانون التناقص المتزايد بالعلوم

يقول دنيسون Denison في محاضرة القاها مؤخراً « ... ان عدد خريجي الكليات يتضاعف باطراد ، وكذلك عدد حاملي الشهادات الثانوية ، وعدد العلماء والمهندسين من حملة شهادات البكالوريوس B.A. او الدكتوراه Ph. D وعـــدد العاملين في البحوث الا ان التعجيل في معدل ازدياد الانتاجين لم يرتفـــع الا قليلا - ان وجد - . »[1] .

ان تجانب الحقيقة على الاطلاق اذا كان ردنا بان الكثير من نفقات البحوث مكرّس للاغراض العسكرية ولذلك فان استعمال هذه البحوث بصورة عرضية للاغراض الانشائية سيكون باهظ التكاليف الى حد ما يضاف الى ذلك ان معدلات نمو الانتاجية في اوربا تفوق ما كانت عليه قبيل الحرب . وان ازدياد الابتكارات لايوازيه الا السرعة المتزايدة لمعدلات النمو الاقتصادي . إلا ان هذه الردود المعقولة لاتجيب على السؤال الرئيسي الذي هو اعمق من ذلك بكثير .

ان الوصف الاكثر دقة لزيادة الانتاجية هو انها عملية تعلم . ويبدو ان التعلم اصبح اكثر كلفة وتعقيداً كلما ازدادت كمية المعرفة . وهذا هو الجواب

(1) «Measuring the conribution of educatiou to eeouomic growth »
ادوارد . ف . دنيسون (منظمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، باريس ١٩٦٤)

لمعضلة دايسون . فاستغلال المعرفة عرضة لتزايد الكلفة (أو تناقص المردود) وهذا ناتج عن ان مجموع المعرفـــة مترابط ولا يمكن تقسيمه بسهولة كما نقسم كعكة . صحيح ان التقسيم ممكن عن طريق التخصص غير ان احد المثالب المعروفة حول الاختصاص بعكس صعوبة تقسيم المعرفة ، فالاختصاصي يفقد القدرة على ربط الحقائق المستقاة من مجالات مختلفة وبذلك يفشل في ادراك تلك التراكيب الفنية للافكار والتي هي شرط ضروري لتحقيق المزيد من التقدم (١). ان تطور المعرفـــة وتعقيدها يشبه التعقيد المتزايد للمؤسسات الضخمة - اي المشاريع البيروقراطية الكبيرة وهي مثال نموذجي لكيفية تناقص العائدات . ان ازدياد الاختصاص يعني في الواقع بيروقراطية العلم bureacratization . الاان المعرفة غير قابلة للتقسيم بأية وسيلة - سواء بتقسيمها بـين المؤسسات ذات الاختصاص او باسلوب لامركزي انما تؤلف كُلًّا متماسكاً لا يمكنه الحياة والازدهار باجزاء منفصلة .

تتضح زيادة تعقيد التعليم في الصعوبة التي يواجهها طلاب العلوم في هضم موادهم والصعوبة التي يواجهها المدرسون في نقل « مادة » العلوم المتزايدة والتي تتضاعف - حسب ادعاءهم - كل عشر سنوات . هذا التعقيد المتزايد ناتج بالطبع عن تزايد الحقائق الجديدة وانفتاح مجالات رحبة . فلنأخذ مثلا مدى اتساع أفق

---

(١) اكد ماركس على ان التخصص العلمي يؤدي الى انفصال الانسان عن العالم المحيط به وتحوله الى جزء في عملية الانتاج . واكد على ان هذا الاغتراب يجب ان يزول بزوال الفرق بين العمل اليدوي والعمل الفكري . ومن هنا تقوم التنمية الاقتصادية في الصين على افكار عامل التخصص . وقد اشار ادم سمث من قبل الى ان التخصص يعدم اي قابلية فكرية لدى العامل ويحوله الى انسان غبي . انظر : ماركس - مخطوطات ١٨٤٤ ، ادم سمث ، ثروة الامم .

المترجم

التطور الفلكي خلال القرن العشرين وفي التوصل الى التركيب الجزئي للغدة ، وفي دراسة درجات الحرارة المنخفضة وفي تعجيل الجزيئات بواسطة السيكلوترون ... الخ . وفي كل حالة من هذه الحالات يصبح التقدم على هذه الجبهات متزايد التكاليف باضطراد .

في الامثلة التي اشرت اليها لايصبح التقدم في أحد هذه المجالات التجريبية اكثر تعقيداً فحسب بل ان المحافظة على زيادة ثابته في الانتاجية تصبح اكثر تعقيدا وكلفة ايضا . كما ان أداة الانتاج تزداد تنوعاً وتعقيداً لأن التقدم في مجال واحد لايؤثر إلا في جزء صغير من الكل . ان تحسين سلعة معينة (التطوير العملي) كالطائرة مثلا يضحي ذا كلفة متزايدة اذا لم يعد بمردودات اكثر بصورة متناسبة .

يضاف الى ذلك كله حقيقة أخرى هي ان الابتكارات تطرح مشاكل ثانوية لا يستطيع المشتغلون بها كانوا جشعين اهمال الواضحة منها : كالاحتجاج ضد ركام المنتجات الذرية التي يجب التحصين منها .. الخ . والواقع ان جزءاً لا بأس به من تكاليف بعض الابتكارات يعود الى الاحتياطات التي يجب اتخاذها لتجنب الاضرار .

وتكمن مشكلة المعلومات في قلب مشكلة التعقيد المتزايد للمعرفة . فالابحاث والاراء والحقائق يجب ربطها مع بعضها لضمان استمرار العملية في سيرها . ويعرف كل عالم مدى استحالة إطلاعه على نتائج الاعمال الجارية حتى في نطاق حقل شديد التخصص .

صحيح ان هناك قوة موازية لتزايد تعقيد المعرفة ، تلك هي الميل لتبسيط وتوحيد النظرية في أعلى مستوياتها هذا عدا بعض الانجازات التعليمية لبعض العلماء والمدرسين إلا ان تطوير النظرية هذا ـ بحد ذاته ـ ذو كلفة متزيدة

وباهظة . فتصميم النظرية الموحدة ، لايمكن التوصل اليه الا اذا كانت الحقائق المعروفة كافية . ونظراً لندرة العلماء القادرين على انجاز هذه المهمة الاستثنائية، فان هذه الطريقة يحتمل ان تتعرقل .

إذا ماسلمنا بـ «قانون الكلفة المتزايدة للتعلم» ، فان سلسلة طريفة من العواقب تنتج عن ذلك . فلكي نستمر على معدل ثابت لنمو الانتاجية ، علينا القيام بجذب عدد متزايد من الناس الى حقل البحث العلمي . وهذا يتوقف - من الناحية العملية - عند حد معين ، أي قبل أن نتوصل الى جذب كل السكان العاملين الى هذا المجال بكثير (اذا اخذنا بعين الاعتبار نتائج اختبارات الذكاء I. Q.) .

ينتج عن ذلك ان هناك حدودا لنمو الانتاجية ، وان معدل نموها يجب ان ينخفض عاجلا أم آجلا . ان التوصل الى هذه النتيجة يكون مبرراً اذا ما آمن المرء ، كما يجب على الماركسيين ان يفعلوا بصورة أساسية ، بان حاجات الانسان محدودة وان اشباعها ممكن[1] .

٦ ــ صبي الساحر[2]

لقد طوّر التقدم التكنولوجي خلال المرحلة التاريخية للنظام الرأسمالي

---

(١) من الجدير بالملاحظة ان المفهوم الماركسي لايقول بمحدودية حاجات الانسان وامكانية اشباعها ، وانما يعتبر المرحلة العليا للمجتمع الشيوعي فترة فيها الانسان يتغير بصورة جذرية بحيث لا يعود يطمح الى مراكمة السلع والخدمات الاستهلاكية لمنفعته الشخصية والى انه سيتحقق عند ذاك وفر هائل من السلع والخدمات بحيث تزيد على حاجيات البشر . (المترجم)

(٢) شبه ماركس وانجلس الرأسمالية والقوى التي تطلقها بالساحر الذي يطلق قواه والاعيبه فاذا به غير قادر على السيطرة عليها (البيان الشيوعي) . وقد استعاد المؤلف هذا التشبيه . (المترجم)

الظروف البيولوجية والتعفسية التي يعيش الانسان فيها ، ومن هنا فقد اوجد مشاكل هائلة والمشكلة الأكثر وضوحاً في مشكلة السكان. فقابلية الاخصاب المتوفرة لدينا مصممّة لجنس يعيش في ظروف حيث الموت - وبصورة خاصة بين الأطفال والامهات - أصعب بكثير مما هو الحال بيننا . غير اننا لم نتكيف بيولوجياً مع هذه الظروف التي أوجدناها وان آثار هذه الظروف لا تزال غير معالجة بعد في جزء كبير من العالم .

وتطور أساليب الحرب مثال آخر فنحن نعرف من دراسة سايكولوجية الحيوان[1] بان أفراد الفصائل المزودة طبيعياً بأسنان حادة ومخاب . الخ (مثل الذئاب) تخضع لقيود في معاركها مع أفراد فصيلتها مما يمنعها من تهديد وجود فصيلتها برمته بينما نرى الحيوانات غير المزودة بما يساعدها على العراك (مثل الحمام) ليس لديها مثل هذه القيود ولذلك فانها معرضة لأن تقتل بعضها البعض بدون رحمة ، وحسب ما تسمح به وسائلها ومن البديهي بان الانسان يخضع بطبيعته الى أسلوب المجموعة الأخيرة . وبعد أن حاز على الأسلحة المختلفة طوّر القيود التي ظلت مع ذلك فاسحة المجال للحروب الدموية . ولقد صاحب تطور الأسلحة الحديثة عدم تناسق لسديد الوضوح بين عقليته المتلائمة مع طبيعة حيوان غير مسلح بالمعنى الذي أشرنا اليه وبين أدوات صراعه التي لا تناسب إلا حيواناً يضع قيوداً على كل أنواع الصراع الإبادي وذلك في ضوء قوة هذه الأسلحة التدميرية الشاملة .

وفيما بين هذين المثالين ، التناسل المتزايد والدمار الشامل ، هنالك مدى

---

(1) Das Sogenannte Böse, Zur Naturgeschichte der Aggressionl Konrad Lorenz, Vienna 1963

كاملاً من آثار التقدم التقني التي كما لاحظنا ، تتجه نحو تدمير أو شلّ المواطن الطبيعي الانسان أو على الأقل تطرح مشكلات يصعب حلها والتي لا يجد رجال الأعمال متعة في حلها . (فهؤلاء لا يهمهم الضجيج الصادر عن العربات التي يبيعونها ولكنهم قد يهتمون بكمل بالمشكلات التي تحدثها مساحيق الغسيل في مجاري المياه) .

ان اعمق آثار التطور التقني هو تأثيره على العلاقات الانسانية عن طريق تأثيره في المجتمع . فخلال المئـــة سنة الماضية لاحظ عدد كبير من الكتاب والفنانين والمفكرين من الذين عانوا من الحضارة بأن سيطرة الآلة على الانسان هي السبب في تفسخه . لقد شعروا بان الآلة تشكل المجتمع بشكل تنظيمي يجعل منها غاية بحد ذاتها بعد ان كانت وسيلة . فآلية الحرب العالمية الأولى كانت بالنسبة لكروس K. Kraus رمزاً للوحش المحتمل . وفي (قلعة) كافكا Franz Kafka نجد بيروقراطية صامتة غير مرئية لا يمكن الاتصال بأفرادها إلا انهم يتحكمون في حياتنا بطريقة مجهولة . ان الماكنة الاجتماعية ، والتنظيم تخنق الروح العفوية مما يؤدي الى جدب العلاقات الانسانية والحياة بصورة عامه .

التقدم التقني وليد الحرب والمصالح العرضية القصيرة النظر المؤسسات ونتيجة لذلك فانه غير متناسق على الاطلاق . اننا نعرف كيف نذهب الى القمر إلا اننا لا نعرف كيف نبني بيوتاً بسيطة ، مناسبة ، ونظيفة لسكان الارض . ان احداً لم يعر اهتماماً كافياً لآثار التقدم التقني في ظروف حياتنا ، على وجودنا وهكذا فانه قوة متضائلة التأثير على حياتنا . اننا لا نسيطر عليه بأية طريقة ولكنه يسيطر علينا بطرق متعرجة ، خفية . بل انها تهددنا ربما أكبر مما كانت قوى

الطبيعة تهدد الانسان البدائي . بديهي ان التقدم العلمي لا يمكن إيقافه حتى لو أردنا ذلك فقد أخذ بالتقدم لدرجة لا يمكن معها مجرد التفكير في ذلك . ولكن يجب ان يكون في مقدورنا تسييره وتنظيمه وتقويته بحيث نستطيع توقع بعض آثاره السلبية واتخاذ الاحتياطات ضدها . واذا ما شئنا ذلك ، اذا اردنا السيطرة على التقدم التقني ، وتكييف انفسنا مع الظروف التي خلقناها بانفسنا فليس امامنا الا القيام بجهود جماعي منظم . علينا ان نبني مجتمعاً قادراً على معالجة هـذه المشكلات بنفس التركيز والعزم الذي يعالج به مجتمعنا المعاصر سباق التسلح . واعتقد بان هذا يجب ان يكون بالنسبة لمرحلتنا الراهنة وفي البلدان المتطورة الحجة الرئيسية لصالح الاشتراكية . وربما تكون هذه وسيلة لمراجعة افكارنا وتكوين فكرة واضحة عما يجب ان تكون عليه الاشتراكية .

السياسة المالية في البلدان النامية

ايلي نجيمة

تعريفها ، اهميتها ، اهدافها ،

١ - تقوم السياسة المالية على مجموعة من التدابير والتشريعات الضريبية والجمركية، تأخذها السلطة العامة عن طريق اجهزتها المختصة ، بغية تحقيق عدد من الاهداف المالية والاقتصادية والاجتماعية . والسياسة المالية بذلك هي جزء من ، كما انها أداة للسياسة الاقتصادية العامة . كما انها في الوقت نفسه انعكاس لمؤسسات الدولة ، ولطبيعة البنيان الاقتصادي والاجتماعي والفكري للبلد ، وللاختيارات السياسية والايديولوجية العليا القائمة في بلد تطبيقها .

٢ - نظراً لفاعلية وسائلها ، السياسة المالية يمكن إن تكون اداة فعالة لتحقيق كثير من الاهداف سواء في الحقل الاقتصادي أو في الحقل الاجتماعي ؛ والاقتصاديون الحديثون على مختلف مذاهبهم يعطون أهمية فائقة واضافية لهذه السياسة في البلدان النامية ، من اجل تدارك نموها وتطورها . وبالفعل منذ عدة سنوات اصبحت السياسة المالية اداة عمل معتمدة ومؤكده لدى العديد من حكومات البلدان النامية ، من اجل تأمين

الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، وايضاً المساهمة في عملية تكوين رأس المال، وبالتالي تمويل الاستثمارات المنتجة. والسياسة المالية السليمة هي التي تستمد اغراضها ووسائلها من اغراض التنمية ومقتضياتها، آخذة بعين الاعتبار البنى الاقتصادية والاجتماعية القائمة في بلد تطبيقها.

٣ – إن التطور الاقتصادي الحديث، وضع على عاتق النظام المالي مهمات اضافية، ودوره لم يعد يقتصر على تأمين الاموال اللازمة لنفقات الدولة الوظيفية والادارية. انما اصبح اداة فعالة في خدمة التنمية، سواء عن طريق مساهمته في تقديم رؤوس الاموال كمصدر تمويلي للتنمية، وسواء في تشجيع تعبئة رؤوس الاموال وتوجيهها نحو المشاريع والاستثمارات المنتجة التي تساهم بدورها في التنمية الاقتصادية. وهذه المهمة تعتبر من ابرز المهام الملقاة على عاتق النظام المالي في البلدان النامية، إذ ان هذه البلدان لاتشكو فقط من قلة رؤوس الاموال لديها، انما ايضاً من غياب المؤسسات والاسواق المالية اللازمة لجمع هذه الاموال وتصريفها في القنوات الاستثمارية. والحقيقة ان غياب هذه المؤسسات يشكل عاملاً من جملة عوامل تدفع رؤوس الاموال المحلية في البلدان النامية، لتهاجر وتتوظف في الخارج في الوقت الذي تشكو فيه هذه البلدان، كما اشرنا سابقاً، من نقص في رؤوس الاموال اللازمة لتمويل استثماراتها ومشاريعها.

٤ – إن عملية تكوين رؤوس الاموال المحلية اللازمة لخطط ومشاريع التنمية يعتمد بصورة اساسية على زيادة الادخار، سواء الخاص منه أو العام. والادخار العام يأتي عن طريق زيادة واردات الدولة وعائداتها وخفض مصروفاتها الادارية. اما الادخار الخاص فهو لايتوفر عملياً وبكميات اقتصادية كبيرة سوى لدى المؤسسات الاقتصادية الكبرى من تجارية أو صناعية. ولدى عدد محدود من الافراد ذوي الدخول المرتفعة، الى جانب كميات بسيطة تأتي من الادخار الشعبي لايمكن اهمالها لأسباب كثيرة.

٥ – إن الادخار العام يمكن الحصول عليه بتعقيل وتحديد مصروفات الدولة الادارية، واعتماد سياسة تقشف جدية حيال المصاريف غير الانتاجية: ومصاريف اللوكس وحب الظهور الذي يدفع الدول النامية لتقليد البلدان المتطورة الغنية بارسال البعثات الدبلوماسية الكبيرة والباهظة التكاليف وبناء الادارات الحكومية الضخمة والانيقة بأمل الظهور على قدم المساواة معها. وباختصار يأتي الادخار العام عن طريق اقتطاع جزء من واردات الدولة، كان يستهلك ويصرف بشكل غير عقلاني. اما الادخار الخاص، اي ادخار المؤسسات الخاصة والافراد اصحاب الدخول المرتفعة، فهو صعب المنال إذا

ترك للارادات الفردية . ولا بد من اجل الحصول عليه وتعبئته وتوجيهه بشكل سليم من تدخل الدولة عن طريق نظامهـا المالي .. والتدابير الملائمة التي تدخل ضمن سياستها المالية . (١)

٦ دلت التجارب ، انه اثناء تنفيذ خطط التنمية تميل المصاريف العامة الى الزيادة بنسبة اعلى من نسبة زيادة وارادات الدولة ، لذا لابد من زيادة وارادات الدولة بشكل مستمر سواء عن طريق رفع معدلات الضرائب والرسوم القائمة أو ايجاد مصادر ضريبية جديدة ، أوالاثنين معاً . كما ان اقتطاع جزء أكبر . من دخل الافراد وعائدات وارباح الشركات والمؤسسات قد توجبه ضرورات اقتصادية اخرى لاعلاقة لها بحجم المبالغ اللازمة للنفقات العامة . إذ أن التوازن الاقتصادي أو تحديد حجم الاستهلاك اثناء عملية التنمية قد يتطلب التدخل للتأثير على حجم الطلب بواسطة بعض الاجراءات المالية والاقتطاعات الضريبية بالاضافة لاجراءات تدخل في اطار السياسة النقدية التي غالباً ما تكون عن طريق تحديد حجم الاعتمادات .

هذه الاجراءات المالية التي تأخذ شكل الاقتطاع الضريبي او الادخار الاجباري ذات فعالية أكيدة ومعترف بها للتأثير على حجم الطلب وتحديده بشكل يؤمن التوازن ، ويتناسب مع حجم الاستهلاك المرغوب فيه اثناء الخطة — كما انه يساعد على مكافحة ارتفاع الاسعار والتضخم النقدي بشكل عام . كما أن تدخلا من نفس الطبيعة تقريباً ، عن طريق زيادة رسوم الاستيراد ، يمكن اللجوء اليـه في حقل التبادل الخارجي لتحديد الاستيراد ، وتخفيف العبء عن ميزان المدفوعات . كما انه على السياسة المالية يتوقف في اغلب الاحيان تأمين الاموال اللازمة للتنمية عن طريق ممارسة عملية التحويل ، اذ ان عملية التحويل هذه لا يمكن ان تـتم عن طريق اصدار اسهم على الدولة نظراً للقدرة الضعيفة على الادخار .. والمشاكل والحذر الذي يرافق عملية تشغيل الاموال العامـة

---

(١) على سبيل المثال . هناك عدد من البلدان كتركيا ، وغانا ، والبرازيل . لجأت منذ وقت قريب الى الادخار الاجباري لتعبئة الموارد المحلية لحساب التنمية ، وهذه التدابير تفرض على بعض الفئات من الموطنين والمؤسسات ، تخصيص جزء من وارداتهم السنوية لشراء اسهم الادخار و الاستفادة من فائدتها . وهذه الاسهم غير قابلة للتداول ، كما ان قيمتها تسدد مع فوائدها المتراكمة عند استحقاقها في نهاية المدة ، بعد ٥ او ٧ او ١٠ سنوات حسب الحال وشروط الاصداء .

واقراضها في البلدان النامية ، لذا لابد من اللجوء الى زيادة الواردات ، وفرض ضرائب جديدة هي ضرب من الادخار الاجباري كي تنقل قسم من الاموال المتوفرة لدى الشعب الى الاقتصاد من جديد بشكل اعتمادات ومساعدات تمنحها الدولة إلى المشاريع الاستثمارية، بعد ان تكون قد اقتطعتها من الافراد .

٧ – بعد كل ما سبق . نرى أن اهداف ومهمات السياسة المالية في البلدان النامية عديدة ومتنوعة وقد يصعب تحقيقها أحياناً في آن واحد ، والبرفسور كالدور من جامعة كمبردج في كتابه عن المالية في الهند ، يعتقد ان على السياسة المالية ان تكرس جهودها لنقل المصادر المالية من استعمالاتها الثانوية القيمة ، الى استعمالات اوليـة وذات قيمة انتاجية كبيرة . والواقع انه من وجهة نظر « المالية الوظيفية » يقع على السياسة المالية في الدرجة الاولى ان تساعد على تأمين التوازن الاقتصادي وتجنيب الاقتصاد التضخم النقدي، يضاف الى ذلك ، مهمة اساسية للسياسة المالية في البلدان النامية هي رفع المعدلات الحدية للادخار وبالتالي تأمين تمويل الاستثمارات ، وحول هذه النقطة يعود البرفسور كالدور ليقول : ان الضرائب هي الوسيلة الانجع لزيادة الادخار الداخلي وتكوين رأس المال .

٨ – وقبل الانتهاء من هـذا القسم يمكن الاشارة بإيجاز لاهداف اخرى يمكن بلوغها عن طريق السياسة المالية ، كالتغلب على آثار التقلبات والتموجات سواء الناشئة عن تغيير الاسعار أو سوء المحاصيل خصوصاً بالنسبة للمحاصيل المعدة للتصدير ، من طريق سياسة تعويضية تجد مواردها في الرسوم المحصلة والموفرة من السنين الجيدة ، كما يمكن عن طريق السياسة المالية تحديد استهلاك السلع والبضائع الكمالية . واخيراً على المالية ان تؤمن للدولة الواردات اللازمة لها والاكثر استقراراً .

اما في الحقل الاجتماعي، فالسياسة المالية اصبحت اداة وسلاحاً للحد من التفاوت بين الدخول عن طريق الضرائب التصاعدية ، وايضـاً للحد من التفاوت في الثروة . والحقيقة انه من الوجهة العملية هـذا مرتبط بطبيعة البنية الاجتماعية والانتماء الطبقي للفئات الحاكمة .

البنى الاقتصادية القائمة والسياسة المالية :

١ – ذهب بعض الاقتصاديين الى الكلام عن البلدان النامية وكأنها مجموعة من البلدان المتشابهة الصفات ، المنسجمة الاهداف التي تواجه نفس المشاكل والعقبات . ولقد ذهب

الاقتصادي الامريكي المعروف روستو في كتابه « مراحل التقدم الاقتصادي » الى التأكيد بان عملية النمو تتم عبر خمس مراحل ولا بد لجميع الأمم من المرور فيها ، مما دفع احد المؤلفين الى تشبيه هـذه المراحل بمحطات السكك الحديدية التي لا بد لقطار التنمية من المرور فيها الواحدة اثر الاخرى وبالترتيب .

وبرغم اننـا لا نؤمن بالقفز وسياسة القفزات ، بصورة خاصة في البلدان النامية ، حيث امكانية السير الطبيعي مسألة بحاجة الى اثبات ، الا اننا نعتقد ان بعض تجارب النمو المعاصرة . كما ان شروط التنمية الاقتصـادية في العصر الحديث ، والتقدم العلمي والتكنيكي وامور كثيرة اخرى تجعل ما ذهب اليه روستو بحاجة ربما الى بعض التعديل . . واعادة النظر . يضاف الى هذا ان البلدان النامية ليست من طبيعة واحدة ومشاكل وامراض التخلف ليست واحدة في كل مكان . فالفروق القائمة فيما بينها عميقة وكبيرة . حتى ان صلاتها فيما بينها ضئيلة ومحدودة جداً خصوصاً اذا قيست بصلاتها مع العالم المتطور الاشتراكي منه او الرأسمالي . لذا فطريق النمو ليست واحدة لكل هـذه البلدان . خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار اختلاف نقاط الانطلاق وأساليب النمو . لذا كان من الطبيعي ان يكون لكل من هذه البلدان تجربته الخاصة به . هذا دون أن ينفي ذلك وجود نقاط مشتركة تجتمع عليها هـذه البلدان ، فمثلاً جميع البلدان النامية تعاني من نقص رؤوس الاموال اللازمة لتنميتها ، وايضاً من نقص الخبرات الفنية العلمية ، وجميع هذه البلدان وعلى درجات متفاوتة القطاع الزراعي فيها متضخم والانتاجية قليلة وتعاني من البطالة الصريحة أو المقنعة . والاستاذ ايف لاكوست في جامعة باريس اشار في كتابة « البلدان المتخلفة » الى اهم العوامل التكوينية للتخلف والتي اعراضها ظاهرة فعـلاً بنسب متفاوتة طبعاً لدى اغلب البلدان النامية .

٢ - الذي يعنينا من هـذا كله — هو ان البنى القائمـة من اقتصادية او اجتماعية تؤثر في انظمة كل بلد ولهاالقول الفصل عند اختيارها خصوصاً عندما يتعلق الامر بالنظام المالي ، ونظراً لكون البلدان النامية متخلفة ومتفاوتة في طبيعة ودرجة نموها فلا بد ان تأتي أنظمتها المالية مختلفة ومتباينة ايضاً لتنسجم مع بلدان تطبيقها .

إلا اننا حين نقول ان البنى القائمة تحدد طبيعة وشكل النظام المالي ، فنحن لا نزعم ان هذه البنى القائمة تحصر الاختيار بنظام دون غيره من الانظمة . انما نعتقد انه عند وضع النظام يجب ان يؤخذ الواقـع بعين الاعتبار ، من اجل ضمان جدوى النظام

وفعاليته من دون أن يحول ذلك دون وضع نظام تطويري ذو أهداف معينة يسعى لتحقيقها .

٣ - فالبنى الاقتصادية والاجتماعية ذات تأثير كبير ومهمة جداً. فمثلاً حين يكون عدد العمال وأصحاب الاجور قليل ومستوى دخلهم ضعيف عندئذ لايرجى الحصول على عائدات كبيرة من الضريبة على هذا المصدر من الدخل دون اثارة انعكاسات اقتصادية واجتماعية ضارة . وعندما يكون قسم من الانتاج مستهلك من قبل القائمين على انتاجه ولا يدخل بالدائرة التجارية «السوق» ، فإن السلطة المختصة تكون مضطرة لفرض ضرائب تتلاءم مع هذا الوضع - والا اخلت من التكليف . وعندما يكون قسم كبير من الشعب أمي من غير المعقول ان يطبق على جميع فئاته نظام قائم على القيود والتصريحات الكتابية عن الدخل . يضاف الى هذا كله .. ان ضآلة الدخل القومي ، والدخل الفردي بالذات تحول دون التوسع في فرض الضرائب والاقتطاع وحصر ذلك في أماكن محدودة .

٤ - هناك امور اخرى ذات اهميــــة فائقة لابد من ذكرها . هي ان النفقات السياسية في البلدان النامية ، غالباً ماتتقدم في اولويتها على النفقات الاقتصادية ، وقد نجد تبريراً لذلك حين تكون وحدة البلد واستقلاله بحاجة الى حماية ، الا ان الامر ليس دائماً كذلك ، وان كثيراً من حكومات البلدان النامية تبدد الاموال من اجل اغراض السياسة الداخلية والحفاظ على السلطة ، ثم ان التخلف الفكري والعلمي في هذه البلدان ينعكس على شكل وطبيعة نفقاتها ، حيث هي احياناً عشوائية وغــير عقلانيه ، ونحن اذا كنا نشير الى ذلك في معرض الكلام عن الواردات فذلك لانه بنظرنا لايمكن معالجة واردات الدولة دون النظر الى بقية نفقاتها ، اذ لايمكن فصل الضرائب عن اوجه استعمالاتها . هذا من ناحيه ، ومن ناحية اخرى وكما يقال ، فان البلدان النامية تعالج امر النفقات والواردات « بالمقلوب » فبدلا من ان تحدد حجم نفقاتها انطلاقا من تقديرات عقلانية وخطة اقتصادية معينه ، ثم تسعى لأن تحصل على الواردات اللازمة لتغطيتها كما تفعل البلدان المتطورة ، هي على العكس ، اذ نظراً لحاجتها غير المحدودة للمال ، بسبب اغراض التنمية ولاسباب عديدة اخرى ، فالنفقات تحدد بكمية الواردات المحصلة او التي يمكن الحصول عليها اقتصادياً وسياسياً ، ولا يخفى مافي ذلك من خطر اذا كانت النفقات غــير عقلانية انحصرت سياسة الواردات بهدف املاء صناديق الدولة .. دون الاهتمام بالآثار الاقتصادية المتولدة من الاقتطاع الضريبي . ان سياسة الواردات يجب ان ترتبط ارتباطــاً وثيقا وعضويا بسياسة النفقات ، والظرف الاقتصادي العام ، وهنا لابد من الاشارة ، الى ان النفقات

في هذه البلدان كثيراً مانتجاوز الواردات والحكومات عادة تلجأ الى الحل السهل والخطر اذا بولغ فيه ، وهو الاعتماد على مصرف الاصدار لتغطية العجز .

٥ – ان نقص المعلومات والاحصاءات الدقيقة المتعلقة بالدخل القومي بوجه عام ودخل الافراد والقطاعات بشكل خاص ، وتفشي الامية .. وعدم الوعي الضريبي ، يجعل تطبيق نظام الضريبة المباشرة على الدخل عرضة لتنازلات كثيرة، «طبعاً هناك فئات من المكلفين محدودة يمكن تطبيق ضريبة الدخل عليها وهذا مأخوذ به في اكثر البلدان النامية» لذا في الوقت الحاضر اكثر البلدان النامية تعتمد على الضرائب غير المباشرة في الحصول على وارداتها . اذ ان العائدات المالية الآتيه من الضرائب المباشرة دون حساب الضرائب على الرواتب والاجور لاتمثل في البلدان النامية سوى قسم ضئيل من الواردات العامة ، انما بعد اتساع النشاطات الاقتصادية والاجتماعية للدولة ، بدا من الضروري ان تفكر هذه باليوم الذي تستطيع فيه ان تقيم نظاما فعالا للضرائب المباشرة .

٦ امام الصعوبات التي تعترض تطبيق الضريبة المباشرة على الدخل تتجه الآراء للأخذ بالضريبة غير المباشرة ، وهذا مايجري فعلا في اكثر البلدان النامية .. لان تطبيقها من الناحية الادارية سهل وبسيط ، اذ أن امكانية وسهولة تطبيق ضريبة ما ، هو امر في غاية الأهمية ، فلا يكفي ان يكون لدينا نظام مالي جيد على الورق فقط بل يجب ان يكون عمليا وقابلا للتطبيق في الواقع . الا انه ايضا وفي بعض الحالات يواجه نظام الضرائب غير المباشرة بعض الصعوبات ، والواقع ان جباية هذه الضرائب يكون اسهل كلما انحصرت مصادرها ، ففي البلدان التي تشكل فيها التجارة الخارجية نسبة كبيرة من الدخل القومي يسهل جباية الضرائب غير المباشرة ، اذ ان هذه التجارة على العموم تتم عبر نقاط محدودة كالموانيء او الطرق الرئيسية التي يسهل مراقبتها . انما جميع البلدان النامية لاتملك مثل هذا الوضع ، ففي الهند مثلا ، حيث التجارة الخارجية لاتمثل سوى ١٠٪ من دخلها القومي لاتتيح الحصول على موارد مهمة .. وبالتالي يجب البحث عن تكاليف اخرى ملائمة ، كما ان هناك عدد من البلدان قسم كبير من انتاجها لايخضع لأية عملية تبادل .. والفلاح فيها ينتج مايستهلكه ، واذا زاد عنده شيء اجرى عليه عملية مقايضة ، ففي هذه الحالة الضرائب غير المباشرة لاتجد لها محلا .

٧ – في رأينا ، ان ضرورات التنمية تقضي بفرض ضرائب بشكل او بآخر لأسباب عديدة لايتسع لشرحها هذا المقال . ففي افريقيا مثلا هناك ضرائب اقتطاعية ، تؤخذ من المحصول ، وتدفع عينا وهي نوع من الضرائب التي تفرض على المحصول الحقلي

لدى قطاعه . طبعاً ان دفع الضرائب نقداً هو افضل بكثير ، كما انه يساعد على ادخال التعامل النقدي الى القطاعات كافة .. وليشمل كافة المبادلات ، لكن هناك من يقترح نظراً لضآلة دخل بعض الفئات من سكان الريف وبالتالي ضآلة مايمكن اقتطاعه من دخلهم ، ان يستعاض عن الضرائب بالاستخدام المجاني للايدي العاملة المتعطلة في بعض المواسم ، من قبل السلطات المحلية ، مقابل مايترتب عليها من ضرائب ، القيام باعمال انشائية محلية كبناء الطرقات وحفر الآبار ، ومكافحة الحشرات الضارة وحتى بناء المدارس وكثير من الاعمال والانشاءات المفيدة لتحسين اوضاعهم المعيشية .

٨ - ثم ان هناك نقطة تتعلق بالنظام الضريبي والنظام المالي بوجه عام والاجهزة القائمة على تنفيذه ، وهي ان اكثر الأنظمة في البلدان النامية متصاعدة بشكل متفرق مبعثر مليء بالثغرات التي تفلت بعض المصادر كما تفسح المجال الى ممارسات غير شريفة ، ففي بعض البلدان نجد ضرائب قديمة متفرقة لا تأتي سوى بفائدات تافهة لا تتناسب بحال مع تكاليف جبايتها ، وهذه الضرائب هي امتدادات لتراكات تاريخية فقدت كل مدلول لها ، ومع ذلك لم تلغ بنص صريح .

ثم ان فعالية النظام وجدواه ليست مسألة تشريع فقط ، التشريع السليم لابد منه ، انما ايضاً مسألة كفاءة وجدارة واستقامة عند الادارة القائمة على تطبيقه . ففي كثير من البلدان يمكن الحصول على فائض في الواردات دون زيادة نسبة الضرائب المعمول بها اذا طبق النظام المالي نفسه بشكل دقيق وشريف . وفي حالات كثيرة نستطيع ان نرجع ضآلة الواردات المالية لتراخي الادارة في تطبيق القانون او التلاعب عليه سواء لأن الادارة ضعيفة وغير كفوءة ، او بكل بساطة لأنها مفسدة وقابلة للرشوة .

٩ - وهناك ناحية أساسية ، وهي مدى انسجام النظام المالي مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي ، فنحن كما رأينا لا يكفي ان يكون لدينا نظام جيد على الورق فقط . بل لا بد ان يكون منسجماً مع واقعه ، ومن خلال ما تقدم نلاحظ انه كلما كان البلد متخلفاً ، كلما كان نظامه المالي بسيطاً ومحدوداً وقاصراً ، والبساطة هنا تأتي على حساب الشمول والفعالية وايضاً المردود ، وكلما تقدم البلد كلما امكن احكام النظام وتطويره ، ثم ان عملية التنمية بالذات تضع مؤسسات البلد ونظامه المالي على وجه الخصوص ليس فقط امام مسألة التكيف التدريجي مع البنيان الاقتصادي والاجتماعي المتطور . انما ايضاً امام ضرورة التخلي عن مبدأ الحياد المزعوم ، والتدخل بصورة فعالة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وهذا يفرض على النظام المالي تحولات دائمة تتيح له

الانسجام المستمر مع الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية الناشئة والمتحولة ، وتؤدي بالتالي لأن يلعب دوراً مهماً في تحقيق عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلد .

الطاقة الضريبية في البلدان النامية :

١ - الطاقة الضريبية في إعتقادنا ، هي النسبة من الدخل القومي التي يمكن اقتطاعها عن طريق الضرائب دون اثارة اعوجاجات او انعكاسات اقتصادية او اجتماعية ضارة . وفي سعينا لدراسة الطاقة الضريبية سنبحث في العوامل التي تحدد هذه الطاقة . وسوف نتجاوز احيانا المفهوم النظري ، ونعالج بايجاز الطاقة الضريبية الفعلية، اي النسبة من الدخل القومي التي يمكن اقتطاعها فعلا ، رغم الظروف وضآلة الامكانيات المتوفرة في البلدان النامية ، آخذين في اعتبارنا سوء الادارة ، وتخلف الانظمة وكافة المعطيات الموضوعية الاخرى .

٢ - ان حجم الطاقة الضريبية في البلدان النامية يخضع لاعتبارات سياسية واقتصادية وادارية . فهي تتعلق بالبنية الاقتصادية ، والتشريع ، وكفاءة الاجهزة ، والسياسة الاقتصادية العليا للدولة .

ان بعض الضرورات السياسية قد تدفع السلطة لفرض ضرائب تفوق الحدود العادية التي تسمح بها القدرة الاقتصادية للبلد . كما ان هزالة السلطة وضعف الادارة ، قد يحد من امكانيات الطاقة الضريبية . وما يجبى فعلاً في هذه الحالة يكون اقل بكثير مما يمكن ان يقتطع من الاقتصاد القومي اذا توفرت السلطة القوية . اما الاعتبارات الاقتصادية التي سنوليها اكثر اهتمامنا ، فهي تتعلق بحجم الدخل القومي ، والدخل الحقيقي للمواطن في السنة ، اي بطريقة توزيع الدخل القومي بين الافراد، ثم حسب توزيع الدخل القومي بين القطاعات الاقتصادية للدولة .

٣ - اذن الطاقة الضريبية ترتبط بالدخل القومي وحجمه . اذ كلما ارتفع هذا الدخل كلما امكن اقتطاع قسم اكبر منه دون المساس بالاستهلاك الضروري للشعب ، وبالفعل فالطاقة الضريبية في البلدان المتطورة الغنية هي اكبر بكثير منها في البلدان النامية ، كما ان الطاقة الضريبية لاترتبط فقط كما رأينا بالحجم الاجمالي للدخل القومي، انما ايضاً بطريقة توزيعه بين مواطنين ذوي دخول مرتفعة الثروة ، ويعتقد انه في حال وجود فئة من المواطنين ذات دخول مرتفعة وبالتالي ذات قدرة كبيرة على الادخار ،

يمكن اقتطاع قسم كبير من الشرائح العليا لدخلهم عن طريق الضرائب التصاعدية، دون ان يمس بذلك استهلاكهم العادي والضروري . في الحقيقة ان هذا صحيح من النــاحية النظرية ، انما يتعرض لنقد كبير من الوجهة العملية ، اذ ان هذه الفئات ذات الدخول المرتفعة غالباً ما تكون نافذة وتمارس ضغطاً سياسياً كبيراً تتهرب بواسطته من دفع الضرائب أو تحمل عبئها ، وهكذا نرى ان المصدر الحقيقي للضرائب هو بالضبط الذي يفلت منها .

٤ — كما الحنا منذ قليل ، ان الطاقة الضريبية ترتبط بكيفية توزع النشاطات الاقتصادية وتوزع الدخل القومي حسب القطاعات الاقتصادية المختلفة. فكلما كان القطاع الحديث من الاقتصاد نامياً كلما كانت الطاقة الضرائبية اكبر ، وذلك ان القطاع التقليدي الذي هو القطاع الزراعي يشغل عادة نسبة كبيرة من الشعب في حين ان نسبة مساهمته في الدخل القومي هي اقل من نسبة مـا يشغله من السكان ، كما ان تكليفه ليس بالامر السهل لعوامل كثيرة ، وسوف نتطرق لموضوع تكليف القطاع الزراعي في الصفحات المقبلة بما له من اهمية قصوى . والذي يحدث حالياً هو ان الاقسام الحديثة من الاقتصاد تتحمل القسم الاكبر من العبء الضريبي . ولا يخفى ما لهذا من مخاطر على تقدم هــذه النشاطات وتطورها .. خصوصاً بعد ان بدأت التشريعات الاجتماعية تتسع وتلقي عليها بالتالي اعباء جديدة .

٥ — من الواضح ان الضريبة ، لايمكن إن تدفع سوى من الفائض الاقتصادي الذي هو « الفائض من الانتاج عن الحد الادنى لاستهلاك المواطنين » فاذا كان هذا الفائض غير مستهلك من قبل حائزيه ، انما مدخر وموظف ، فلا يمكن آنئذ اقتطاع اي قسم منه ، سوى على حساب الادخار وتكوين رأس المال . إلا ان هذا الفائض غالباً مايذهب الى الاستهلاك ، وحتى اذا لم يستهلك فهو يؤخر بشكل عقيم، لذا فان اقتطاع هذا الفائض عن طريق الضرائب يساعد على تكوين رأس المال العام ، وبالتالي يمكن ان يعبأ هــذا الفائض ويوجه نحو الاستثمارات ولخدمة اغراض التنمية .

٦ — عملياً ليس من السهل تعريف « الحد الادنى للاستهلاك الضروري » أو قياسه بشكل دقيق ، لأن هذا يرتبط بعوامل عديدة .. منها مستوى المعيشة وحالة التقدم الاقتصادي والاجتماعي في البلد ، ثم العادات والتقاليد ، وعادات الاستهلاك المتوارثة . وبالنتيجة فان الفائض الاقتصادي يختلف من بلد لآخر .. ومن جماعة لأخرى ، خصوصاً ان الاستهلاك الضروري هــذا لا ينحصر بالضرورة بالحاجات المعيشية الاساسية ، والدراسات التي

اجريت حول الفائض الاقتصادي وحجمه، تميل الى الاعتقاد بانه يتراوح بين ٣٠ و ٤٠٪ من الدخل القومي في البلدان النامية .

٧ — اذا اخذنا بعين الاعتبار الملاحظات والافكار الآنفة الذكر يبقى علينا ان نتساءل حول الحدود القصوى للاقتطاع الضريبي الفعلي. هنا لا يوجد معيار وحيد، انما من دراسة الاحصاءات المتوفرة لدينا، نلاحظ ان العائدات الضرائبية تبلغ حوالي ٣٥٪ من الدخل القومي في البلدان المتطورة وهي لا تتجاوز ١٥ الى ٢٠٪ من الدخل القومي في البلدان النامية عدا « ماليزيا وسيلان » ، واذا كانت البلدان النـامية تقتطع نسبة من دخلها اقل مما تقتطعه البلدان المتطورة فذلك ليس لأنه لاحاجة لها بالواردات، انما بكل بساطة نظراً لصعوبات وعوامل كثيرة اتينا على ذكر بعضها لا تستطيع بسببها ان تقتطع اكثر من ذلك. لذا فإننا في الصفحات القادمة سوف نعالج بايجاز بعض المصادر الرئيسية للعائدات الضريبية فنبحث في تكليف القطاع الزراعي ، والضريبة على الدخـــل ... والضرائب على الاستهلاك ، والرسوم الجمركية والضرائب على ارباح الشركات الاجنبية.

تكليف القطاع الزراعي :

١ — ان اهمية تكليف القطاع الزراعي بالضرائب الملائمة ، تأتي نظراً لأهميـــة الدخل الناجم عن هذا القطاع ، والدور المحرك الذي يمكن ان يلعبه القطاع الزراعي في عملية التنمية .

في كثير من البلدان النامية يقدم القطاع الزراعي اكثر من نصف الدخـل القومي والتقدم الاقتصادي يتوقف بدرجة كبيرة وكما رأينا سابقاً على مقدار الفائض الاقتصادي الذي يستطيع ان يقدمه هذا القطاع وبقية القطاعات الاقتصادية الاخرى ، والمشكلة الاساسية برأينا هي في اختيار السياسة المالية الملائمة التي تستطيع فعلاً ان تقتطع هـذا الفائض او تعبئه وتضعه في خـــدمة التنمية ، والتي تستطيع في نفس الوقت ان تحقق اهدافاً اخرى تنموية ومفيدة كالحد من الاستعمال غير الاقتصادي للارض وتشجيع الانتاج وتبديل وتطوير البنية الزراعية المتخلفة .

٢ — في البلدان النامية حالياً نسبة الذين يعملون في الزراعة تتجاوز ٥٠٪ من السكان وتصل الى ٧٠ أو ٨٠٪ في بعض البلدان الفقيرة جداً . بينما لاتتجاوز هذه النسبة ٥ أو ١٠٪ في البلدان المتطورة . وبقدر ما يتطور البلد بقدر ما تتناقص نسبة السكان

العاملين في القطاع الزراعي . وحتى يصبح هذا التطور ممكناً ، يجب ان تزداد بشكل دائم كمية المواد الغذائية التي لاتستهلك من قبل منتجيها ، لتؤمن غذاء العاملين في القطاعات الاقتصادية الأخرى ، هذا الشيء الذي بدوره يستطيع ان يخلق توسعاً في سوق العمل خارج القطاع الزراعي دون الخوف أو التعرض لأي خطر تضخمي .

٣ — أما الضرائب المعمول بها حالياً في البلدان النامية في القطاع الزراعي ، فهي في رأينا تنحصر في ثلاث فئات رئيسية ، فهي إما ضرائب عقارية على الأرض الزراعية . وإما ضرائب على الانتاج الزراعي ، وإما أخيراً ضرائب تتناول الدخل الآتي من الزراعة .

إن الضرائب العقارية على الأرض الزراعية قديمة جداً سواء في آسيا أو في أوروبا ، وهي تفرض على الأرض الزراعية بنسبة مئوية من قيمتها التأجيرية أو من قيمة متوسط انتاجها السنوي المقدر ، وليس على الانتاج الفعلي . وهـذا التقدير أو التخمين يخضع للمراجعة وإعادة النظر بين فترة واخرى . ان نظام التخمين هذا يعتمد بصورة رئيسية على وجود سجل عقاري للأراضي الزراعية يتيح تحديدها وتصنيفها . وفي مؤتمر فيينا للعلوم الاقتصادية عام ١٩٦٢ ، بعث من جديد البروفسور كالدور في تقرير قدمه ، فكرة الضريبة العقارية ، واعتبرها لاتزال صالحة ، لا بل أفضل من غيرها بكثير خصوصاً اذا ازيلت النقاط السلبية فيها عن طريق تطويرها .

٤ — إن كون مطرح الضريبة هو الأرض ، وليس انتاجها الفعلي يجعل هذه الضريبة مستحقة سواء استثمرت الأرض أو لم تستثمر ، وهذا يدفع بالضرورة صاحب الأرض إما لاستثمارها بنفسه أو تأجيرها أو التخلص منهـا ، وللسبب نفسه يصبح من مصلحة المزارع ان يرفع من انتاجية ارضه ويحسنها ، ويستثمر فيها المزروعات ذات المردود الكبير حتى لو احتاجت لعمل اكثر ، والى زراعة اكثر من محصول في السنة الواحدة ، طالما ان الضريبة مستحقة عليه بنفس النسبة وفي جميع الأحوال . ثم ان كون مطرح الضريبـة هو الأرض ، يجعل حصيلة الضرائب اكثر ثبوتاً ولا تتأثر بالتـالي كثيراً بالمواسم .

كما انه يجعل هذه الضريبة تصاعدية كلما ازدادت الملكية ، يحقق نوعاً من العدالة الاجتماعية بالتكليف وتخفف نسبياً من حدة التفاوت في الدخول ، وعملياً يضطر المالك الكبير تحت وطأة الضريبة التصاعدية للتخلي عن قسم من أراضيه والاهتمام بزراعة ما تبقى عنده من أرض بشكل منتج اكثر . وبهذا تحول دون الاستعمال غير الاقتصادي للأرض ، كما

ان هذا ينشط سوق بيع الأراضي ويخفف من قيمة الأراضي بالذات ، وترتفع بالتالي قيمة العمل اللازم لزراعتها .

٥ - أما النقد الذي يوجه لهذه الضريبة فيتناولها من نقطتين ، الأولى تدور حول المالك أي المزارع ، والثانية حول كيفية التكليف وتصنيف المطرح وصعوباته .

٦ - هناك من يقول ، ان هذه الضريبة لاتلائم سوى الفلاح المقتدر أو المالك الغني ، إذ انه يستطيع بسهولة ان ينسجم مع اهداف الضريبة بما عنده من امكانيات . أما الفلاح الفقير فيسحق تحت وطأة هذه الضريبة دون ان يستطيع أن ينسجم مع اهدافها أو يحسن انتاجه ، وبالتالي قد يضطر للتنازل عن ارضه ، وهذا الوضع لايمكن علاجه دائماً عن طريق سياسة الاعفاءات للملكيات الصغرى أو المعدلات الدنيا إذ ان المبالغة فيها تفقد الضريبة مزاياها . ثم ان تحسين المردود ليس دائماً مرتبطاً بالتحسينات التي يجريها المزارع على ارضه ، إنما أيضاً بالانشاءات الكبرى أو الصغرى التي تقوم بها الدولة، والدراسات والارشادات الزراعية التي تقدمها السلطة المختصة ، وهذا يصيب عادة بعض المزارعين دون البعض الآخر ، والفلاح الفقير هو آخر من يستفيد من بركات التقدم .
ثم ان المردود بالذات يختلف من سنة لأخرى ويرتبط في أغلب الحالات بالأحوال الجوية ، وسوء الموسم وجودته امر مهم جداً في مقدرة المزارع على رفع الضريبة . فالمطالبة بالضريبة مهما كانت نتائج الموسم ، رغم مايوفره ذلك من استقرار في العائدات إلا انه امر يجانب العدالة ومتعذر عملياً،حتى مفهوم استقرار العائدات هذا هو مفهوم جامد،ينطوي على عدم مرونة كبيرة . ففي حال جودة المواسم وارتفاع الانتاج ، لاتزداد حصيلة الدولة بشيء ،وفي حال سوء المواسم ، تواجه الصعوبات والاضطراب في تحصيل الضريبة، ثم ان الأرض بالذات قد لايزرعها الفلاح في بعض السنين لاسباب خارجة عن ارادته . وتعود لطبيعة الأرض والأحوال الجوية ، كما ان الارض لاتنتج في بعض السنين خصوصاً في السنوات الأولى للتشجير ، فكيف نطالب المالك بالضريبة بهذه الأحوال دون ان نرهقه ونأكل من رأس ماله بالذات وليس من دخله . وهذا يخالف ابسط قواعدالتكليف وهي أن الضريبة يجب في الشروط العادية ان لاتتناول سوى الدخل ، حتى لاتأكل مطرحها.

٧ - أما النقطة الثانية التي يدور حولها النقد ، فهي تتناول صعوبة تصنيف الأراضي .. والحاجة المستمرة لاعادة النظر بالتصنيف والمعدلات الضريبية المطبقة . خصوصاً وان هناك انواع عديـــدة من الأراضي ، فمنها الخصب والمتوسط والقليل الخصوبة ، ومنها ما يسقى بمياه الانهار ومنها بالآبار أو الأمطار ، وكمية الأمطار تختلف

من منطقة لاخرى ، ومنها ما يصلح لمزروعات ذات اسعار جيدة ، ومنها مالا يصلح لذلك ، لذا يعتبر وضع معدلات وسطى لقيمة انتاجها السنوي ليس بالأمر السهل ، وعملياً تكون هذه المعدلات تقريبية وتسمح بتنازلات كبيرة ، ثم ان قيمة المردود حتى لو كان ثابتاً ترتفع صعوداً وهبوطاً مع تقلب الاسعار والسوق خصوصاً اذا كانت المزروعات معدة للتصدير ، كما ان نفقات الاستثمار تختلف من منطقة لأخرى وحسب الوسائل والادوات المستعملة ، وبعد الأرض أو قربها عن مناطق الاستهلاك ، سواء من أجل تصنيع المزروعات وتحويلها أو من اجل استهلاكها النهائي . وبالتالي فان تصنيف هذه الأراضي حسب قيمة متوسط انتاجها السنوي أمر في غاية الصعوبة والتعقيد ، كما انه يحتاج لادارة واعية كفوءة جداً لاتتوفر عادة في البلدان النامية .

٨ — رغم وجاهة هذا النقد سواء بما يخص المزارع أو بما يخص الأرض وتصنيفاتها.. إلا انه يمكن الرد عليه .

ان التشريع الضريبي ، يمكن ان يحتاط لموضوع الاراضي غير المزروعة لاسباب زراعية أو لعدم انتاجها خلال السنين الاولى من التشجير مثلا عن طريق اعفائها من الضريبة بناء على طلب يقدمه المزارع وتتحقق من صحته الادارة. كما ان التشريع الضريبي بالذات يمكن أن يفسح المجال للسلطات المختصة بمنحها سلطات تقديرية لاتخاذ تدابير استثنائية بتأجيل دفع الضريبة للسنين الجيدة في المناطق المنكوبة أو التي اصابها الجفاف وسوء الموسم ، إذ لا يخفى ان المعدل الوسطي المعتمد هو معدل وسطي لانتاج عدة سنين . أما موضوع المرونة ، فكما لاحظنا، انه يجعل الضريبة تصاعدية مع سياسة اعفاءات حكيمة، وتحميل المواسم الجيدة ما افلت من التحصيل في ايام المواسم السيئة يخفف من جمود الضريبة ويعطيها مرونة لابأس بها . وهنا في معرض الحديث عن المرونة وتأثر الضريبة بالمحيط هناك ناحية مهمة نود ان نشير اليها وهي ، اذا كانت الضريبة متأثرة بالبنية الزراعيـــة القائمة والمعطيات الموضوعية المحيطة ، إلا انها هي أيضاً مؤثرة بما حولها ، ومن الطبيعي ان تواجه مراحل التطبيق الاولى بعض الصعوبات ، ولكن على المدى الطويل تستقيم الامور وتنسجم الضريبة مع بيئتها وتؤدي اغراضها ، وهذا يقودنا للرد على النقد الثاني الموجه لهذه الضريبة وهو صعوبات التصنيف .

٩ — هناك ملاحظة موضوعية اولية ، هي ان المبـــالغة في كثرة التنوع القائم بطرق الزراعة وفي خصوبة الارض هو نتيجة التسيب وعدم شغل الارض وتسميدها واللاعقلانية في استثمارها، كما انه نتيجة لعدم وجود عوامل ثابتة في العملية الزراعية توازن

العوامل المتغيرة وتضمن الزراعة حداً أدنى من الاستقرار . فالامطار غير ثابتة ، والأسعار غير ثابتة ، والخصوبة متنوعة .. ونفقات الاستثمار مختلفة .. الخ .. وهذا الوضع يشيع الاضطراب ويحول دون التخطيط الواعي . ونحن لانزعم انه عن طريق سياسة التكليف والضريبة نستطيع ان نحل جميع أشكالات وأمراض الزراعة في البلدان النامية ، انما نعتقد ان الضريبة يمكن ان تسام وتساعد على حل بعضها . والضريبة التي هي مجال بحثنا الان ، يمكن بسبب طبيعتها ان تشكل عنصراً ثابتاً مستقراً ولكن دون جمود من عناصر العملية الزراعية .. خصوصاً اذا اتخذت الاحتياطات اللازمة التي تساعد على توفير المرونة في تطبيقها . واستقرار هذا العامل يمكن ان يساعد في استقرار العملية الزراعية بالذات .

أما مايتعلق بتوزيع الاراضي على فئات تصنيفها ، فالاجهزة المختصة بمساعدة الاجهزة الفنية تستطيع ان تقسم الاراضي الى مناطق زراعية وتوزعها منطقة على سلم من عدة درجات توزع عليه الاراضي حسب متوسط انتاجها خلال عدة سنين آخذين بعين الاعتبار عند التصنيف المعطيات الموضوعية التي تحدد ذلك. إن هذا الاسلوب بالتكليف يقدم لنا فائدة اضافية ، إذ نحصل بذلك على سجلات دقيقة ونظامية للاراضي الزراعية والمستثمرة أو غير المستثمرة ، من خلال سجل عقاري زراعي يتجاوز فوائده ومهامه النطاق الضرائبي والمالي لتمتد الى اغراض اقتصادية اخرى خصوصاً عند وضع الخطة بما تقدمه من معلومات واحصاءات ذات قيمة . إذ ان البلدان النامية كما نعلم تشكو دائماً من فقدان أو ضآلة الاحصاءات لديها ، والسجل العقاري للاراضي الزراعية يقدم لنا مصدراً من أهم المصادر لاستقاء المعلومات بخصوص قطاع من أهم القطاعات الاقتصادية.
ثم إن الفلاح يجب ان لا نبالغ في سلبيته ، وهو لن يبقى سلبياً امام الضريبة ، فهو مضطر من اجل مصلحته بالذات ان يباشر بزراعة المزروعات ذات الانتاج الوفير ، والتي تناسب ارضه وأيضاً سيسعى لرفع مردودها وتحسينها ، والاقتصاد باستعمال الارض لصالح الانتاجية المرتفعة والزراعة الكثيفة . وفي ذلك فائدة كبرى في البلدان التي تشكو من قلة الاراضي الصالحة للزراعة لديها . وهكذا نرى ان هذه الضريبة تساعد على تعقيل الانتاج والاستثمار ، واما الادعاء بأن الفلاح الفقير لايملك القدرة لا على رفع الضريبة ولاتحسين الارض فكما ذكرنا سابقاً يمكن معالجة هذا الوضع جزئياً عن طريق اعفاء الملكيات الصغيرة جداً من الضريبة . اما معالجة وضع هذا الفلاح فهو يتطلب معالجة جذرية تخرج عن نطاق المالية ، وترتبط بالاصلاح الزراعي والتعاونيات وامور اخرى

تخرج عن نطاق بحثنا ، ونحن نعتقد فوق ذلك انه حتى تؤتي السياسة المالية ثمارها وتحقق اغراضها يجب ان تعمل بتنسيق مع بقية اشكال السياسة الاقتصادية والاجتماعية للبلد وأن تكون على انسجام معها .

١٠ – اما الضريبة على الانتاج الزراعي ، فهي من طبيعة اخرى ، إذ ان مطرح الضريبة هنا هو الانتاج الزراعي وليس الارض ، وفي الحقيقة قسم فقط من الانتاج الزراعي ، إذ هي لاتطول سوى الانتاج المسوق او المصنع في نقاط التوزيع عند نقل المحصول من القرية للمدينة لاستهلاكه او في اماكن تحويله وتصنيعه . وهذه الضريبة ليست بحاجة الى « الكاداستر » « سجل الاراضي » أو أية تسجيلات من هذا النوع وبالتالي فهي بسيطة . إلا ان هذه الضريبة بدائية ، وتقع على المستهلك . كما انها تتيح التهرب الضريبي بسهولة ، كما لاتطول سوى القسم المسوق من الانتاج ، وهي لهذا السبب نفسه لاتشجع على تبادل تجارة المنتجات الزراعية او تصنيعها وتشجع على استهلاك المحاصيل من قبل منتجيها ، وهذا يخالف ويناقض تماماً مفهوم الفائض الاقتصادي الزراعي الذي لمحنا اليه وافترضنا انه من مهمات السياسة المالية يجب اقتطاعه وتحويله للقطاعات الأخرى .

١١ – امام ذلك واخذاً بالافكار الجديدة البراقة حول الضريبة على الدخل ، عدد كبير من البلدان النامية فكر بان يدخل في انظمته الضريبية ضريبة تطول الدخل العائد من الزراعة . أي مطرح الضريبة هنا هو دخل المزارع . والمكلف بها هو المزارع بالذات . وهدف هذه الضريبة هو ان تطول المزارعين الكبار والمتوسطين والذين عليا بتحايلهم يفلتون من التكليف او يلقونه على المستهلك . وبهذا الشكل لاتفقد الضريبة الزراعية طابعها الاجتماعي ، انما تصبح ايضاً اداة فعالة لتطول الدخول المرتفعة لكبار المالكين ، وتعبئة الفائض الزراعي لصالح القطاعات الاخرى . إذ ان ضريبة تصاعدية يدفعها المزارعون الكبار ، بالاضافة الى حصيلتها المهمة وعدالتها ، فهي تدفع هؤلاء المزارعين للتفتيش عن قطاعات اقتصادية اخرى يوظفون فيها اموالهم بدلاً من استثمارها بالزراعة ، كما ان هذه الضريبة ذات مرونة كبيرة لارتباطها بالدخل مباشرة .

انما بالرغم من الفوائد والميزات الظاهرة لهذه الضريبة، إلا انه من الصعب الأخذ بها خصوصاً في البلدان النامية، إذ أن هذه الضريبة تفترض وجود قدرة عند المزارع لتقديم تصريح عن دخله وتقدير مصاريفه وهذا صعب التحقيق، إذ حتى لو توفرت القدرة على التصريحات الكتابية وهذا غير أكيد فان عدم الوعي الضريبي وعدم امكانية مراقبة القيود واللاعقلانية في اساليب الانتاج تفوت الفائدة المرجاة من هذه الضريبة ، وتحول دون

تطبيقها بشكل يؤدي الغرض منها . كما ان قسماً كبيراً من الانتاج الزراعي في هذه البلدان يستهلك من قبل منتجيه أو يجرى عليه عملية مقايضة دون ان يتدخل النقد وبالتالي يصعب تقييم الدخل وحسابه بشكل دقيق وشامل .

١٢ - بعد هذا كله ودون ان نتطرق إلى بعض اساليب التكليف البدائية والمعروفة، نحن نعتقد ان على السياسة المالية في حقل التكليف الزراعي ، ان تراعي ما استطاعت الظروف المحيطة والمعطيات الموضوعية القائمة ، دون ان يفقدها ذلك طبيعتها التطويرية والمحركة ، وذلك حتى تستطيع تحقيق اغراضها في اقتطاع الفائض الزراعي لتحويله الى القطاعات الاقتصادية الاخرى ، والمساهمة في تطور الزراعة وتقدمها .

الضريبة على الدخل :

١ - تقوم الضريبة على الدخل على فكرة تشخيص الضريبة ، والنظر الى الفرد المكلف واعبائه .. دون أن تهمل طبيعة الدخل والمصدر المتولد عنه . إنما حقل تطبيق هذه الضريبة ضيق نسبياً في البلدان النامية وخاصة في البلدان التي لايوجد فيها طبقة وطنية ذات دخول مرتفعة أو شركات ذات اهمية . لذا عائدات هذه الضريبة تأتي في الدرجة الاولى من موظفي الدولة ، ومستخدمي عدد محدود من الشركات الكبرى . كما أن التوسع في هذه الضريبة حتى تشمل فئات أخرى كأصحاب المهن الحرة يواجه صعوبات كبيرة في الحالات التي لايمكن فيها مسك حسابات نظامية ، مما يدفع السلطة احياناً لفرض ضريبة تقديرية سنوية على الدخل المفترض حدوثه ، تسمى ضريبة الدخل المقطوع ، وهذه الاخيرة رغم انها تفرض بمعدلات مختلفة الا انها تفقد الضريبة على الدخل أكثر مزاياها .

٢ - وقد نصح بعض الاقتصاديين ، من أجل فرض ضريبة على الدخل ملائمة للمؤسسات الصغيرة ، بتقييم هذه المؤسسات وفرض ضريبة سنوية عليها بنسبة مئوية من قيمتها ، تختلف بين مهنة واخرى ، اذ في الحقيقة يصعب اخفاء العناصر المكونة للمؤسسة اكثر مما يصعب اخفاء دخلها الحقيقي ، وهذه الضريبة عملية وبسيطة ، رغم حاجتها للتقييم المستمر للمؤسسات مع مايكلفه ذلك من مصاريف وبتخلله من صعوبات ، كما أن لهذه الضريبة بعض المحاسن ، تأتي في نظرنا ، من كون الضريبة تفرض على المؤسسة مهما كانت نسبة ارباحها وبالتالي « كما رأينا في الضريبة العقارية على الارض الزراعية » تشجع

على الاتجاه للعمل في القطاعات التي تعطي أكبر عائد، كما إنها تدفع المؤسسات العاجزة للتصفية . وهناك صعوبة تقف عادة امام الضريبة على الدخل حين تكون بعض اسهم الشركات للحامل وبالتالي تحول دون الزام مالكيها بالضرائب ، الا انه يمكن التغلب جزئياً على هذه المشكلة عن طريق اقتطاع الضريبة عند المنبع ، الا انه حتى في هذه الحالة لايمكن تطبيق تصاعدية الضريبة ، ويعامل المساهمين الكبار كالصغار وبنفس النسبة .

٣ – ان البحث في الفوائد الاقتصادية للضريبة التصاعدية على الدخل وعدالتها هو من الوضوح بحيث سنكتفي بالاشارة الموجزة لبعضها ، فالضريبة التصاعدية على الدخل ، بالاضافة الى أنها تأخذ باعتبارها حالة المكلف واعبائه العائلية والشخصية نسبها ترتبط بحجم الدخل ، وطبيعة مصادره ، فتفرق بين الدخل الناجم عن العمل ... أو رأس المال أو كليهما معاً ، كما أنها تطول الشرائح العليا من اصحاب الدخول الكبيرة ، بنسب عالية تحول دون استعمال هؤلاء لهذه الشرائح من الدخل في نفقات استهلاكية كمالية غالباً ماتكون بضائعها مستوردة ، اذ كلما ارتفع الدخل كلما ازدادت النسبة المخصصة منه للاستهلاك غير الضروري . اما الادعاء بأن الضريبة التصاعدية تطول الشرائح العليا من الدخل بنسب كبيرة تحول دون ادخارها، وهذه الشرائح هي التي تدخر عادة، وبالتالي الضريبة التصاعدية تسيء الى الادخار ، فنحن كنا قد بحثنا هذا الأمر سابقاً في بداية هذا المقال ولا نريد أن نزيد شيئاً على ماقلناه .

٤ – مما تقدم نرى ، أن الضريبة على الدخل ليس من السهل تعميمها الا اذا كان البلد على درجة من التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، اذ انه في كثير من البلدان النامية التي يوجد فيها تشريعات ضرائبية على الدخل تبقى هذه التشريعات على الورق فقط ، وعائدات هذه الضريبة اذا استثنينا ما يأتي من الاجور ضئيلة جداً ، ولا تمثل سوى قسم ضئيل مما يجب ان يجبى قانونأ ونظرياً ، لذا امام صعوبة التوسع في تطبيق هذه الضريبة وضعف الانظمة المالية بالذات ، وسهولة التحايل والتهرب ، يمكن القول ان أهمية الواردات تتوقف عملياً في البلدان النامية على حصيلة الضرائب غير المباشرة وبصورة خاصة الضرائب على الاستهلاك .

الضرائب على الاستهلاك :

١ – ان هذه الضرائب تفرض عند استخدام الدخل . وتوزيع استخدام الدخل يرتبط غالباً بحجمه ، اذ ترتفع النسبة المخصصة للاستهلاك الضروري كلما انخفض الدخل ،

والعكس صحيح . والضرائب غير المباشرة هذه ، هي سهلة التحصيل ، كما انها تساعد على تدارك وتكايفهما اقلت من الضرائب المباشرة ، الا ان وظيفتها الاقتصادية وجدواها في البلدان النامية هما في رأينا أهم بكثير من الضرائب المباشرة .. خصوصاً اذا لاحظنا تزايد الميل للاستهلاك وضعف الميل للادخار في البلدان موضوع دراستنا . اذن ان تزايد الدخل في هذه البلدان يرافقه تزايد في الاستهلاك كبير خصوصاً لدى الطبقات الشعبية . وميل لاستهلاك الحاجات الكمالية عند الطبقات الاخرى . وهنا بالضبط يمكن عن طريق الضرائب هذه توجيه الاستهلاك وتحديده . فهي باقتطاعها جزء كبير من الدخل الذي كان سيذهب للانفاق ، تقدم حصيلة ضرائبية هي شكل من أشكال الادخار الاجباري لصالح الدولة ، كما انها برفعها الاسعار تقلل الاستهلاك ، خصوصاً بالنسبة للسلع الكمالية ونصف الكمالية التي يتمتع طلبها بمرونة كبيرة .. وهي بذلك لاتشجع على الاستهلاك وتساعد على الادخار الخاص بالذات .

٢ – الا أنه لابد من الاشارة إلى أن ضآلة الدخول في البلدان النامية تجعل فرض هذه الضرائب أمر مجاف للعدالة ، خصوصاً عندما تتناول السلع الضرورية والمستهلكة من الطبقات الشعبية والفقيرة . وفي رأينا انه من الممكن معالجة ذلك عن طريق اعفاء السلع الضرورية والاولية من الضريبة ، وتكليف بقية السلع غير الضرورية ، حتى ولو كانت مستهلكة من الطبقات الفقيرة ، اذا كان في استهلاكها ضرراً او كانت غير اساسية كالمشروبات وغيرها ، وهنا يمكن ان تحقق هذه الضريبة اهدافاً اجتماعية بالاضافة لاهدافها المالية والاقتصادية .اما السلع الكمالية ونصف الكمالية المستهلكة عادة من اصحاب الدخول المرتفعة والتي يزداد استهلاكها كلما ارتفع الدخل ، فلا ريب أن تكليفها بضرائب ورسوم ذات معدلات ملائمة ترتبط مع درجة ضرورتها ، ودخل الذين يستهلكونها عادة ، يساعد على اقتطاع جزء من دخل هؤلاء لصالح التنمية ، ويقيم نوعاً من عدالة التكليف ، كما انه يخفف من استهلاكها لصالح الادخار الخاص .

٣ – ان هذه الضرائب ، اي الضرائب على الاستهلاك ، بتحديدها أو عدم تشجيعها استهلاك السلع الكمالية ونصف الكمالية ، تخفف من استيراد هذه السلع اذا كانت مستوردة وفي هذا كل الفائدة لميزان المدفوعات والحفاظ على النقد الاجنبي الذي يمكن ان يكرس لاستيراد التجهيزات الانتاجية ، كما أنها تحول دون التوسع في انتاج هذه السلع بالذات اذا كان انتاجها محلياً وبالتالي تصرف رؤوس الاموال عن الاستثمارات والمشاريع التي تنتجها لصالح المشاريع والاستثمارات التي تنتج السلع الضرورية

والاساسية ، والتي ازدياد انتاجها وتطوره يؤدي الى تخفيف اسعارها ، وبالتالي يزيد في القوة الشرائية لدى الطبقات الشعبية التي تستهلكها . والضرائب على الاستهلاك بهذه الحالة تلعب دوراً تحويلياً وانتقائياً في توجيه الاستثمارات نحو القطاع الاكثر ضرورة للتنمية سواء عند تكليف السلع حسب ضرورتها الجانبية او الاقتصادية أو حسالة ومستوى مستهلكيها . وسواء بتكليف المواد الاولية حسب استعمالاتها . خصوصاً اذا كانت المعدلات المفروضة مدروسة بشكل جيد واقتصادي دقيق ، من حيث ضرورة السلعة ومرونة الطلب والعرض ، امام تغير السعر ، وامكانية الاستبدال بين الاصناف الشبيهة التي يمكن توفرها أو إنتاجها بآن واحد . وهذه الضرائب تقترب كثيراً بالواقع من النظام المعمول به في الاقتصاديات الاشتراكية . .ويبدو انها اصبحت شبه عامة في أكثر البلدان النامية والمتطورة ايضاً . . لحصيلتها المهمة ودورها الاقتصادي والاجتماعي .

الرسوم على التبادل الخارجي :

١ – ترتبط اقتصاديات البلدان النامية ارتباطاً وثيقاً بالاسواق العالمية ، فهي تصدر اليها المواد الأولية ، وتستورد منها القسم الاكثر من حاجتها من المواد المصنوعة او الاستهلاكية الدائمة ، وهذه المبادلات تمر غالباً عبر نقاط قليلة محصورة ، هي الموانىء ومحطات القطارات ، والطرق الرئيسية. لذا فان فرض رسوم على هذه بالاضافة لاغراضها الاقتصادية والمالية . تتمتع بوفرة الحصيلة عادة وسهولة التحصيل .

٢ – ان الرسوم على الاستيراد ، والرسوم النوعية الأخرى تهدف للتحكم بالاستيراد بشكل عام ، وتحديد استيراد السلع غير الضرورية بشكل خاص ، كما تشكل في احيان كثيرة جزء من سياسة الحماية للصناعة الوطنية عن طريق تكليف السلع المستوردة برسوم كبيرة ، تجعل اسعار مثيلاتها المنتجة محلياً في وضع ملائم ، كما يمكن لهذه الرسوم ان تستخدم لمصلحة قطاع اقتصادي دون غيره .

ان فرض رسوم جركية نوعية حسب نوع المستوردات يبدو ذو فائدة كبيرة ، لأنه يجعل التكليف أكثر عقلانية واقرب الى العدالة . اذ بفرض الرسوم المرتفعة على السلع الكمالية والتي تستهلك عادة من الفئات الغنية – لا يحد استيراد هذه السلع فقط انما ايضاً ينسجم مع غاية السياسة المالية في تصاعدية الضريبة حسب مستوى الدخل ، كما انه « كما ذكرنا » يقدم حماية معقولة للصناعات المحلية المماثلة او البديلة – مما يؤدي الى

الى ازدهارها وتوسعها وتشغيل عدد اكبر من العمال . الا ان المبالغة في هـذه الرسوم « رسوم الحماية » قد يؤدي ايضاً الى اغداق امتيازات للصناعة الوطنية تجعلها تتقاعس عن التقدم كما انه قد يساعد المؤسسات العاجزة واللااقتصادية على اخفاء عجزها ومتابعة نشاطها عن طريق احتكارها للسوق المحلي .. وهذا خطر جداً على المدى الطويل ، اذ ان الانتاج المحلي رغم اهميته واهمية تقدمه الا انه يجب ان يتم في شروط اقتصادية معقولة وبأسعار مناسبة ما امكن ، مـع الأخذ طبعاً بعين الاعتبار كافة الشروط الموضوعية المحيطة. وهناك نقطة صغيرة ، هي ان الرسوم المفروضة على المواد الاولية المستوردة.. والمنتجات الوسطية التي تساهم في الانتاج قد تحد من التطور الصناعي الوطني اذا كانت غير مناسبة وملائمة .. وهنا تبدو الضرورة القصوى لدراسة هذه المعدلات من وجهة نظر اقتصادية بحتة ، واعادة النظر بها من حين لآخر حتى تتكيف دائماً مع شروط الانتاج المتطورة .. والمتغيرة .

٣ – الرسوم على الصادرات ذات طبيعة اخرى ، وهي ذات اهمية في تأمين التوازن الاقتصادي الداخلي ، كما انها مصدر للموارد المالية لا يستهان به . وقد ظهرت اهميتها في هـذا الشأن اثناء وبعد الحرب الكورية مباشرة ، مع ارتفاع اسعار المواد الأولية في الأسواق العالمية . وهذه الرسوم يمكن استعمالها سواء كمصدر للعائدات المالية في الاماكن والمدن التي تنشط فيها تجارة التخزين والتصدير واعادة التصدير ، وسواء لتحديد تصدير بعض المواد والسلع حتى تبقى هذه المواد تحت تصرف الاقتصاد الوطني، كرسوم التصدير على الابقار والاغنام بهدف تنمية الانتاج الحيواني الوطني ، او رسوم التصدير على الجلود في الهند لتنشيط مصانع الاحذية المحلية ، وهناك امثلة عديدة ، اذ أن وضع المواد الاولية في متناول الصناعة المحلية وبأسعار اقتصادية ملائمة ينشط هذه الصناعة – سواء المعدة للسوق الداخلي او للتصدير ، اذ من الافضل تصدير المواد مصنوعة من تصديرها قبل اجراء أية عملية تحويلية عليها .

٤ – الا ان رسوم التصدير هذه يجب ان تدرس ايضاً بعناية حتى لا تشجع على التهريب ولا تصبح عبئـاً ثقيلاً على اسعار المواد الاولية التي تواجه منافسة عالمية ، وهنـاك بعض البلدان التي تقدم اعانات تصدير بدلاً من اخذ رسوم تصدير لتشجيع الصادرات ، انمـا رسوم التصدير تبقى ممكنة التحصيل طالما ان السعر العالمي يسمح باستمرار الانتاج المحلي وتسويته بصورة ملائمة وبدون مصاعب . وهي سهلة وممكنـة كما كان للموارد التي تصدرها البلدان النامية اسواقاً واسعاراً جيدة في البلدان المتطورة ،

او التي الطلب عليها في تزايد مستمر ولا يتأثر كثيراً بارتفاع اسعارها . وهكذا نرى ان حصيلة هذه الرسوم تشكل نسبة عالية جداً من الواردات العامة في كل من ماليزيا وغانا وسيلان حيث تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ ٪ من عائدات الدولة . اما كيفية تطبيقها فنحن نعتقد انه يستحسن ان يعاد النظر بمعدلاتها بشكل دائم، اي أن تكون بشكل سلم متحرك يتبع تغير الاسعار ، وتكاليف الانتاج المحلية .

الضرائب على الشركات الاجنبية :

١ – تعطي بعض البلدان النامية والمتطورة اهميـة خاصة لتوظيف رؤوس الأموال الاجنبية لديها . وان بعضها يعتقد « بحق او بغير حق » انه لابد من الاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية لتمويل وتنفيذ خططها التنموية ، وان هذه الأموال عـا يرافقها عادة من خبرات ادارية وفنية ، تقدم الكفاءة التكنيكية الوحيدة القادرة على دفع عجلة التطور وتنفيذ المشاريع الكبرى وتنمية الصناعة المحلية .

فالبلدان النامية التي لا تملك الامكانات المالية والمؤهلات الفنية التي لابد منهـا لتطورها الاقتصادي تجد نفسها مضطرة لفتح ابوابها امام المؤسسات والشركات الاجنبية سواء لتنفيذ بعض المشاريع لديها . وسواء لتشغيل اموالها واستثمارها .. وهي بالتالي ، أي البلدان النامية ، قـد تضطر لجذب هذه الشركات اليها ان تمنحها تسهيلات مالية واعفاءات ضرائبية غالباً ما تكون ضمن قوانين خاصة تسمى قوانين الاستثمار او غيرها .

٢ – بدون شك ان هذه التسهيلات والاعفاءات ليست العامل الوحيـد الذي يدفع الشركات الاجنبية للعمل في البلدان النامية ، هناك طبعاً عوامل عـديدة اخرى ، انما اهمية هذه الاعفاءات واحياناً الضمانات ، من مالية وضرائبية ، تزيد كلما كانت الارباح المتوقعة قليلة . انما المبالغة في منح هذه التسهيلات والاعفاءات غالباً ما يؤدي الى إساءة الاستعمال وهذا ما يسود فعلاً في اغلب الحالات وفي رأينا ان الاقتصاد في اعطاء هـذه الامتيازات لا ينفر الشركات الاجنبية ورؤوس الاموال في المجيء والعمل في البلدان النامية كما يزعم البعض ، اذ ان اثرها ليس ثانوياً فحسب انما نعتقد أيضـاً ان الشروط السليمة العادلة في التعاقد والربح تعطي من الضمانات الاكيدة والثقة اكثر بكثير ، بحيث ان اي

تغيير في الحكم لا يجر اطلاقاً تغييرا في العقود وان المبالغة في الاعفاءات غالباً ما تثير السخط لدى الشعب الذي يرى هذه الاستثمارات بتحركه في كل لحظة .

٣ — وهذه الاعفاءات قد تكون بشكل اعفاء من الرسوم الجمركية على مستوردات الشركات الاجنبية ، وقد تكون اعفاءات مؤقتة او دائمة من الضرائب على الارباح او اجور العاملين فيها ، او ترتيبات ملائمة لمصلحة الشركات بما يخص حساب الارباح واطفاء الاستهلاك ، او عن طريق تضييق مطرح الضريبة بحيث لا تتناول سوى قسم مما يمكن ان تتناوله في الشروط العادية .

٤ — إن منح هذه الاعفاءات يرتبط بعوامل عديدة ، غالبـاً ماتكون غير اقتصادية وتؤدي بالتالي الى اساءة الاستعمال . كما أن المبالغة بها يجعل رقابة الدولة على هذه الشركات ضعيفة لا بل معدومة ، ويعطي هذه الشركات استقلالاً كبيراً له انعكاسات اقتصادية وسياسية واجتماعية خطيرة ، خصوصاً إذا كانت هذه الشركات مدعومة مباشرة من حكوماتها او تسيطر على قطاعات اقتصادية كبيرة واساسية . لذا نحن نعتقد ان فرض ضريبة مهما كانت قليلة على مستوردات هذه الشركات او بضائعها المصدرة هو مهم جداً لمراقبة أعمالها ، كما ان الضريبة على ارباحها المحلية تبدو ذات فوائد عديدة طالما أنها لاتمس سوى الأرباح المتحققة فعلاً ، إنما هذه الضريبة في الواقع تفسح المجال لعمليات تهرب ضريبي كبير خصوصاً عندما تكون الشركة المكافئة فرعاً لشركة أم لها عدة فروع في مناطق متفرقة من العالم ، ولها نشاطات اقتصـــادية متعددة ومتكاملة ، إذ تستطيع عندها هذه الفروع ان تتعامل مع بعضها بيعاً وشراء ، وعن طريق تعديل الاسعـار واللعب بها ، يمكن تهريب جميع الارباح وحصرها بالفروع الموجودة في البــلاد حيث النظام الضرائبي فيها خفيف الوطأة او عديم الأثر « بلاد الجناة الضرائبية » . وبالفعل هذا مايجري حالياً منذ الحرب العالمية الثانية بالنسبة لأكثر الشركات الكبرى . لذا كثير من الدول تقف موقفاً فاتراً تجاه الشركات الاجنبية وتحاول ما استطاعت ان تحتاط للامر ، إنما النجاح نادراً مايكون حليفها .

٥ — ان الاستعانة بالخبرات الاجنبية يبدو لا غنى عنه في المراحل الاولى للتنمية الاقتصادية ، والتاريخ الاقتصادي حافل بمثل هذه التجارب سواء في العــالم الغربي الرأسمالي أو في العالم الشرقي الاشتراكي . لذا الاستغناء عن هذه الخبرات غير معقول إلا على حساب تضحيات كبيرة أمام ذلك تبدو ضرورة السعي لاقامة انظمة مالية في البلدان النامية تحول دون اساءة الاستعمال ، والعبث بمصالح الدولة المضيفة . كما تبدو الضرورة

الى تنسيق العمل في هذا الاتجاه بين البلدان النامية كمجموعة أو مجموعات ، حتى لاتصبح الاعفاءات التي يقدمونها عبارة عن مزايدات فيا بينهم لايستفيد منها غير الشركات الاجنبية، خصوصاً وكما ذكرنا سابقاً يجب ألا يغيب عن الذهن ان الناحية الضرائبية لاتشكل سوى عامل من جملة عوامل عديدة ، تأخذها الشركة بعين الاعتبار وتدرسها لدى توظيف اموالها في البلدان النامية . لذا فالمبالغة في الاعفاءات تعطي الشركات الاجنبية أرباحاً اضافية لاتستحقها ، اكثر مما تجذبها للعمل في البلدان النامية .

خاتمة :

بعد كل ماتقدم ، ومن اجل ختام هذا البحث ، الذي ناقشنا فيه بعض النقاط ، وقصرنا فيه عن مناقشة البعض الآخر لأنه لا يتسع لعلاجها جميعها ، نعتقد ان نقطة البدء لأية نظرية واقعية للمالية في البلدان النامية يجب أن تنطلق من مفهوم الفائض الاقتصادي المتولد عن القطاعات والنشاطات الاقتصادية المختلفة وخصوصاً القطاع الزراعي ، واقتطاع هذا الفائض لصالح مشاريع التنمية دون اثارة أية انعكاسات او اعوجاجات او ردود فعل اقتصادية او اجتماعية ضارة بالتنمية . لذا يمثل اقتطاع هذا الفائض من طرف ووضعه في خدمة التنمية من طرف آخر المعيار العملي والواقعي للسياسة المالية الناجحة والسليمة ، لأنها بذلك لاتكون قد ساهمت في تحقيق وتمويل التنمية فحسب ، انها ايضاً ساعدت على تخفيف حدة التفاوت بين الدخول نظراً لارتباط الفائض بارتفاع الدخل ، إذا كلما كان الدخل مرتفعاً كلما ازدادت كمية الفائض المتوفرة .

أمام الجدار

جورج سالم

في نهاية الطريق ، في نهاية الطريق الطويل ، أقعى كأنما أصيب بالشلل. لقد كان ذلك فوق تصوّره وفوق تحمّله ، وفوق أية طاقة انسانية . فمنذ سنوات بعيدة وهو يعمل ويعمل بلا ملل ، غير مبال بالتعب ، وكان يشق هذه الطريق ، يوماً بعد يوم ، وشهراً في أثر شهر . حين سلّموه أدوات العمل ارتبط بها ، وشعر أن ارتباطه هذا مميري ، وأنه سيصل بعد سنوات ، بعد عشر سنوات او عشرين أو ثلاثين ، الى نهاية الطريق . كان عليه أن يشق درباً صغيراً في أرض صخرية صلدة ، وسيكون هذا العمل مورد رزقه . ليس يستطيع الآن ، وهو في غمرة الألم أن يتذكر كيف قطع كل هذه الأيام ، كل مايذكره تفصيلات صغيرة لاتُنبى عن متاعب لاحصر لها اعترضته ، وعن الحرمان الطويل الذي ذاقه خلال هذه الفترة ، ولقد صبر له صبراً عنيداً ، كان يقدّر

وكان يرجو أن يذوق الراحة والطمأنينة بعد ذاك العناء حين يصل الى النهاية لقد قنع بهذا المصير وأحبه ، ومن أجله عمل أضعاف مايعمل زملاؤه الذين يراهم من بعيد يعملون مثله في دروب أخرى . وكما كانت تضحيته بلا حدود فان أمله الآن بلا حدود .

حاول أن يتحرك فوجد نفسه عاجزاً عن الحركة ، نظر في يأس خانق الى أدواته مبعثرة حوله على تراب الأرض ، وقد ارتسمت عليها آثار من قبضة يده وعرق جبينه ، كانت ملقاة بلا حراك . نظر حوله فلم ير كائناً حياً . كان قد اعتاد أن يعيش وحده منغمراً في عمله الشاق ، وشعر بشوق لاهب لرؤية وجه انساني ، وجه طفل صغير يلعب فيلمح البشر والسعادة على وجهه ، اوشيخ يتوكأ على العصا وهو لايفتأ يتكلم فيصغي الى كلامه المتلعثم ، أوساعد شاب يمد إليه ذراعيه فيبعث فيه شيئاً من القوة ويقيله من هذا الوهن ، أو وجه امرأة ... آه امرأة لم يكن يملك طرد خيالها من ذهنه ، ولكم حنّ اليها بعد ساعات العمل المرهقة ، كانت رغبة في الوصول الى نهاية الطريق أقوى من أية رغبة أخرى ، ولم يكن يسمح لأي كائن ، مهما كان ، أن يعيقه عن مسيرته ، وتساءل في نفسه :

ـ أتراني كنت واهماً ؟

ولم يعرف جواباً عن هذا السؤال . ورأى على مقربة منه أشجار الصنوبر والسنديان تملأ المرتفعات وتكسوها خضرة جميلة ، كأن كأنما يرى هذا المنظر لأول مرة منذ سنوات بعيدة ، واكتشف فجأة جمال الطبيعة ، فأمعن النظر في هذه الأشجار الكثيفة وتأمل دقة تكوينها وجلال هيئتها ، وراقب العصافير والطيور تزقزق حولها ، وتطير من غصن الى غصن فوقها ، تنقضّ على الأرض

حيناً ، وتصعّد في الجو حيناً آخر ، مصفقة بأجنحتها او باسطة لها في اطمئنان وهدوء . وخطر بباله أنه ربما كان وراء هذه المرتفعات بحر أزرق جميل الزرقة ، وارهف سمعه عسى أن يسمع صوت هديره الذي حرم منه ، وتخيّل أفواجاً من الناس يؤمونه ليسبحوا فيه ، سيكون هناك أطفال يلعبون فوق الرمال ويبكون ويضحكون ، وسيكون هناك ايضاً نساء من كل الأعمار ، صغار وكبار ، جميلات وقبيحات ، وكلهن يستمتعن بدفء الشمس ودغدغة المياه وحركة الموج وهو يتكسر على أجسامهن ، وسيكون هناك رجال ، رجال شتى ينعمون بدفء جمالهن ، قد تركوا اعمالهم غير آسفين عليها ، أما هو ... فانه هنا مايزال .

حين أفاق من ذهوله ، واستعاد قدرته على تحريك عضلاته أخذ يسترجع لحظات هذا اليوم القاسي . فقد كان على مايشبه اليقين من ان عمله على وشك الانتهاء ، وأنه سيخلد بعد ذلك الى الراحة التي طالما حلم بها ، وسيذوق وينعم بما حرم منه طوال هذه السنين المنصرمة . والتفت التفاتة الى الخلف فرأى ان العمل الذي أنجز كان عملا طويلاً متقناً ، ورأى الدرب الذي حفر طوال هذه السنين فاذا هو درب مستقيم خير من الدروب العديدة التي لمحها من بعيد من صنع زملائه وأقرانه فشعر بالرضا والغبطة . لقد سار كل شيء على مايرام نتيجة جهوده ، ان النقطة التي سينتهي لديها العمل تلوح له الآن واضحة كل الوضوح وان هي إلا ضربات قليلة في الأرض حتى يصل اليها ، بل لقد وصل اليها فعلاً . لله سنوات العناء ، أين أنت ؟ انها لتبدو له الآن كذكرى بعيدة حتى ان الآلام التي انتابته واعتصرت قلبه والجروح التي أدمت يديه قد بهتت كلها الآن . وقال في نفسه : « أرأيت لقد كتب : من يصبر الى المنتهى يخلص » ، وها أنت

قد ظفرت » . وفكر في بعض من رآهم يتراجعون في منتصف الطريق : ممّن لم يطيقوا صبراً فآثروا السلامة والعافية وراحة البال والطمأنينة الرخيصة ، فنكثوا بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم وقال بصوت عال : « لقد كانوا ضعفاء ، أما أنا ... »

وقف ينتظر ... سيأتون ، لا شك في انهم سيأتون ، فها هنا مكان الملتقى ، وها هو الدرب الذي يفضي الى الواحة قد عبده بيديه هاتين كانت الشمس في السمت ترسل أشعة حارة محرقة في هذه الأرض العراء . وتحمل حرها اللاهب بصبر كبير ، ما ضر أن يحتمل الظمأ ساعة أو بعض ساعة ، ههذه هي الواحة امامه بكل جمالها ، ان صوت خرير المياه فيها يكاد يصل الى مسامعه ، وها هي أفياء الأشجار تنبسط على شتى الأرجاء هنالك ، وتتناهى اليه ضحكات انسانية عذبة واعدة ، فأيقظت في جسمه المنهوك الحياة الغافية ، فصفق قلبه بشوق الى متعة وارتعش ...

عند ذاك خطر له ان يصيح ، أن يدعو سيد الواحة ، وراح ينادي بصوت يجمع بين العذوبة والجلال ، لم يجبه أحد ولكن الأرض التي أمامه تحركت هذه المرة ، وظهر شرخ عرضاني راح يتسع تدريجياً أمام دهشته وعجبه . أهو زلزال ؟ أم كارثة غير متوقعة ؟ ومن هذا الشرخ ، وعلى نحو سريع ، بدأ يظهر الجدار ، وبأسرع من لمح البصر ارتفع جدار صلب من صخر قاس اسود وراح يمتد عرضاً ويتسع من كلا طرفيه ، فشكل قوساً أحاط به ثم أخذ بالارتفاع تدريجياً حتى كاد يلامس السحاب .

اتقدت عيناه دهشة وغيظاً امام هذا الجدار المتقوس الذي أحس أنه يسد عليه الأفق ويأخذ بخناقه ، ويكاد يكتم أنفاسه ، وأدرك على نحو غامض أنه

أمام خطر حقيقي يتهدده ، ولكنه موقن أن ما من سبيل لدرء هذا الخطر ، وبحث عن عون أي عون ، ولم يصعب عليه أن يعرف أنه كان وحيداً وأنه لن يجد العون وأن الآفاق كلها مسدودة ، تطلع حوله والى الأعالي ، فوجد السماء داكنة الزرقة ، صماء . لعل الواحة قد احتجزت صوته ولم يسمع هذا الجدار حتى يرجع الصدى ...

كانت قد مضت عليه فترة لم يسمع له الألم والدهشة بتحديدها حينما انطلقت أصوات الأبواق ، أصوات مرنة قاسية انطلقت من أبواق نحاسية قاسية ، وتطلع الى الجدار ، الى ذرا الجدار الشاهقة فأبصر الأبواق النحاسية ، كانت تشبه الأبواق التي يعرفها ، ولكنها تفوقها طولاً على نحو مرعب . قال في نفسه : « ما أطول هذه الأبواق ، انني لم أر في حياتي كلها شبيها لها ! » ومع أن ذرا الجدار كانت بعيدة عنه فقد بدت له الأبواق على مثل هذا الطول فقال : « عجباً ! كيف تبدو هذه الأبواق عن قرب ؟! » ، وظهرت له من بعد رؤوس النافخين فيها واستطاع بمشقة أن يتبين وجوههم . كانت وجوهها صلبة كالصوان ، كحجارة الجدار نفسه ، وكانت عيونهم صغيرة كالنقط السود تنفذ اليه من عل . استمر الرجال ينفخون في أبواقهم على نحو متتابع لاتوقف فيه ، وعلى وتيرة واحدة لاتعلو ولا تنخفض ، وإما توقفوا برزت آنذاك من أعلى السور ، رؤوس أخرى خيل إليه أنه يعرف قسمات هذه الوجوه ، كانت بعض تلك الرؤوس لرجال ملتحين طاعنين في السن وأخرى لشبان وغيرها لكهول . ونظرت اليه كل تلك الوجوه نظرات لامبالية . ولم تلبث ان اختفت كما ظهرت ، وخيل إليه انها كانت تنزل سلالم خفية من الطرف الآخر من الجدار ، ولم يبق امامه الا نافخو الأبواق الذين عادوا ينفخون نغمتهم الرتيبة الخانقة .

لم يحاول أن يسأل ولم يحاول ان يفهم كذلك ، فقد بلغ به اليأس أقصى مايمكن ان يبلغه بالكائن الحي ، فوقف كأنه مبتّر في الأرض ، وكأنما فقد للحظات كل شعور او حس انساني وسط هذا الفراغ الهائل المحدق به . وغير بعيد منه كانت تثوي ادواته ، أدوات العمل التي ارتوت من لحمه، وعرقه ، وخلفه كان يمتد الدرب ، طويلاً مستقيماً كما ينبغي أن يكون في اعتقاده ؛ رمى أحد نافخي الأبواق بوقه فسقط في الطرف الآخر من الجدار ، وبعد لحظــات سمع صوت ارتطامه الحاد بالأرض ، فانتشله الصوت من جموده وراح ينظر الى النافخ في استياء فرآه يبادله النظرات ، أراد أن يقول شيئاً ، أن يناديه ، أن يسأله ، ولكن حنجرته كانت متصلبة ، متشنجة ، فلم يقو على الكلام ، إلا أنه رأى ان نافخ البوق يحرّك يديه فتطلع اليه فاذا هو يتهيأ للكلام ، وقد وضع يديه امام فمه على شكل بوق ليوصل كلامه إليه . فاصغى بكل حواسه ، باعضاء جسمه كافة ليلتقط كلماته . ماذا عسى ان يقول وهذا الجدار يقضي على كل قول ويقف امام كل امل في الوصول .

تناهى اليه صوت نافخ البوق ، نحاسياً اجش ، والتقط من هــذا البعد الشاسع كلماته . كان يقول له :

ــ لقد انهيت عملك بشكل حسن ، وانه لعمل مُرضٍ .

أحسّ كأنما ردّت روحه اليه ، وعاوده بريق من أمل كان قد هرب من حنايا نفسه ، وأضاف نافخ البوق :

ــ إن عملك مرض ، والدرب الذي حفرته خـــلال هذه السنوات لابأس به .

شعر بمزيد من الارتياح وبشيء من السرور . فاستجمع بقية من قوة كانت فيه ، وشيئاً من شجاعة كانت على وشك الاختفاء وقال له :

- وهذا الجدار ؟ كيف السبيل الى عبوره !

حرّك نافخ البوق يده كأنه يقول له : لا ! ثم قال :

- أما الجدار فلن تجتازه ، ولقد أوكلنا الى هؤلاء حراسته .

واشار الى عدد من الرجال فبرزوا حول الجدار مدججين بالأسلحة ، تلتمع في ضياء الشمس خوذهم النحاسية وسيوفهم المعدنية ودروعهم البيض ، وامتشق الحراس سيوفهم بعـــد ان وقفوا في أماكن محددة لهم تفصل بينهم مسافات متساوية ، استعداداً لحراسة الجدار .

قال وهو يصرخ :

- اذن لماذا كان ذلك العمل كله ؟

أجابه نافخ البوق ، وابتسامة صفراء تلتمع على وجهه

- لم يذهب عملك سدى !

ثم أضاف :

- يقول لك السيد ان عليك أن تبدأ العمل مرة أخرى .

فهتف :

- مرة أخرى ، والسنوات التي أمضيت .

أجابه نافخ البرق :

- هـذا ما قاله السيد ، عليك ان تبدأ العمل مره اخرى ، وينبغي في هذه المرة أن تبـــذل مزيداً من الجهد في حفر الدرب وليكن أوسع وأعمق هل فهمت ؟

حاول ان يتشبث بمكانه ونظر نظرة تحد الى الأعلى . كان يريد ان يبقى هنا وأن يلج الى ماوراء الجدار ، وكأنما لحظ نافخ البوق ذلك فأشار الى الحراس اشارة ما ، وانحنى الحراس الى الخلف ، والتقطوا حجارة صغيرة وراحوا يحصبونه بها ، وكانت هذه الحجارة الصغيرة الدقيقة اما اصابت جسمه تحولت الى قطع من الحجر الأحمر الملتهب .

أدرك ان كل نقاش أمسى غير مجد . فنظر نظرة أخيرة الى نافخ البوق وقال له في يأس ونقمة :

– وهل أرى الجدار في المرة المقبلة يحول بيني وبين الدخول الى الواحة؟

– انى لي أن أعرف ذلك !

وخطر له سؤال أخير :

– ومن أين عسى أن أبدأ ؟

أجابه نافخ البوق وكأنه على عجل من انهاء الحديث :

– ستبدأ من البداية .

– من البداية !

– أجل ، من بداية البداية !!

عند ذاك بالتدقيق اقعى كأنما اصيب بالشلل . كان يشعر ان طاقته قد هربت منه وبعد زمن لايقدر ان يحده كم امتد راي ان ينهض مهما كلف الأمر ، فليس يستطيع ان يظل على وضعه ذاك ابد الدهر ، وان كان ، في اعماقه ، يتمنى لو بقي في مكانه .

نفض الغبار عن ثيابه وجسمه ونهض ليسير وهو لايدري الى اين يتجه .

* * *

كانت الشمس قد جنحت الى المغيب حين لمح ذلك الشخص الغريب متجها نحوه عبر الأراضي البور ، كان كهلا مهيب الطلعة ذا لحية طويلة بيضاء ، وعلى جبهته تجعدات عميقة . جذبته عيناه . عينان صافيتان عميقتا الغور لالون لهما ، عينان موحيتان فيهما نبل وجلال وسكينة كئيبة واذ اقترب منه حياه ، فتوقف ليرد على تحيته ، وسأله :

– من انت ايها الغريب ، لقد اقمت في هـــذه الأرجاء سنوات ولم ألتق بك ؟

كان يشعر بشيء من الارتيـــاح والطمأنينة وهو يحدثه ، رغم كل الـه وبأسه .

اجابه وصوته مزيج من الحنان والوقار :

– انا العراف ، لقد لمحتك من بعيد ، فأقبلت اليك ، فقد تكون بحاجة الى مساعدتي .

كانت عيناه الصافيتان وحدهما تتكلمان في تلك الأرض المقفرة الخالية من كل حنان انساني . وخطر بباله ان يفضي اليه بما ألمّ بـه فسارع العرّاف يقول له :

– أعرف كل ماجرى لك وكل ماتشعر به .

فصرخ من أعماقه :

– ولكني أتألم .. وأنا وحدي !

قال له العرّاف :

– ان الانسان يتألم دائماً وحده .

ومرت فترة صمت باهظة ، فالتفت الى العرّاف وقال له فيما يشبه الضراعة :

– سأضطر الى أن أعمل مرة ثانية وأنفق سنوات كثيرة من عمري .

قال له العرّاف :

– حتى لو عملت مرة ثانية فسوف تجد هذا الجدار ينتصب أمامك حين ينتهي عملك ، ولو عاودت العمل مرة ثالثة ورابعة فسوف تجد الجدار ذاته ينتصب أمامك في كل حين .

فسأله في ألم :

– وماذا عن العذاب والألم والصبر الطويل والعمل المضني ؟

فلم يجبه العرّاف .

صرخ في وجهه كمن أضاع صوابه :

– لقد نكثوا بوعدهم وكذبوا عليّ اذن ، لقد كانوا يكذبون .

وتفل حوله ، وكان ماتفله دماً أحمر قانياً كانه قطعة من كبده .

قال العرّاف في تأس :

– لم يكذبوا عليك ولكن هذه هي طبيعة الحياة . لقد اخترت أنت هذا الدرب وستظل تعمل فيه مهما كانت النتيجة .

هز رأسه كمن لايصدق أذنيه ، ورفع بصره فالتقى بعيني العراف وقال له :

– كل ماحولي كذب . ان الحياة اكذوبة كبرى .

فابتسم العرّاف واجابه :

– اجل .

ثم أضاف :

ـ ارايت أنك لم تضع وقتك سدى !

قال الرجل بعد هنيهة وعيناه تبعثان الشرر :

ـ والآن ؟ من اين ترى أن أبدأ ؟

ـ ابدأ من البداية ، من بداية البداية ، فليس لك خيار في ذلك . لأن هذا الجدار سيظل ههنا مادمت قربه ولن تستطيع ان تتقدم خطوة وراءه . اما البداية فهي في متناول يدك .

اذ ذاك بحث عن أدواته .

كان العراف ينظر اليه نظرات صامتة بعينيه الصافيتين .

القتل خلف خرائط التاريخ

محمد أحمد العزب
- القاهرة -

حصادُ الرِّيح ما تفلّتَ في بُرْدي من الكلماتْ
وقبضُ الريح تنبضُ خُطاي من أبدِ الشروق إلى غد الظلماتْ
يغنّي الجدْبُ في شفتي..
يمنحني ذراعَ الظلّ متّكأً
ويُولِمُ من دم الأموات للأحياء .. والأحياء للأمواتْ !!

* * *

أقوم على تلاع الخوْف ..
أعبد طوْطمي حجَراً .. وتنّيناً . وإنساناً خرافيّا
أُغلغل في زمان البدْء ..
أضربُ جبهة التاريخ ..

أرقص فوق أحطابي . بدائيًا .. بدائيًا
أنام على جذوع الصمت ..
أصحو قاتلاً أو نصفَ مقتولٍ بلا عينينْ
ألاعِنُ وَجْهِيَ البينيّ في المابيْن
أرافق ظلّيَ العريان من شبح الحُضُور إلى يباب البدء
إلى ماليس تاريخاً
أهاجر في ارتحال الصيف عن خطّ استواء الأيْن واللاأيْن
إلى خطّ احتواء الأيْن في اللاأين
ولكنّي ..
على أَبَدِ العُبُورِ أُراجِعُ الأشياءْ
وأعْبُد طوطمي .. حجراً .. وتنيّنا .. وإنساناً خرافيًا
وأستلقي على قدميه .. في بَهْو افتتاح العصر ..
هجّاءً .. حضاريًا !!

* * *

إذا في داخلي خَفَقَتْ غنائيّاتُ فصْل الفعل
وأجْهش داخلي المَوّاجُ بالأصواتْ
عرفْتُ بأنّ ما رَقَدَتْ عليه مدائنُ الموتى .
خُطا الطوفان في الطرقاتْ !!
إذا بِبُذُوري التي رُدِمَتْ بآلاف التجاريب
تفجَّرَ قاعُها الطينيُّ بالأمْواجْ
عرفْتُ بأن ما انكفأتْ عليه خلائطُ الأمشاجْ

يقاتل أبجديات التشكُّل قبل ميلاده
على إيقاعِ التنميطِ في كل الأساليبِ !!
إذا .. أنا .. أنت .. صرنا اثنين
ولم تتوحّد الأضدادُ
عرفتُ بأنّ ما بين انفلات التنهدِ . والتنهدِ
فراغاتٌ بلا أبعاد !!

* * *

تموتُ وسائدي .
كانت تُموِّجُ عطورَها اليقظانَ فوق حريرِها اليقظان
وكنتُ أنا ..
أتوهُ على هضابِ الدفءِ جوعانا
وأحلمُ زووقي . والماء . والمجداف . والشطآن
وكنتُ أبارزُ الشعر المغامر في بلاطِ الصيفْ
وأكفرُ بانكسارِ السيفْ
وكنتُ إله شرفتها ..
وكانت - ياطقوس الحزن - أروع من إلهي الطيفْ !!
تموتُ وسائدي .
والآن ..
موسيقى الفصول تموتْ !!
موسيقى الفصول تموتْ !!

* * *

أُواجه عالمي عريانَ ..
أقرأُ في البداياتِ !!
أُدير حوائطَ الأشياء ..
أُنفيني .. من الماضي .. إلى الآتي !!
أثور على :
« حصادِ الرّيح »
« قَبْضِ الرّيح »
« كُلّ طَوَاطِمِ الدنيا »
اثور على غباءاتي !!
وأغسل وجهي المكدود في بئرِ احتواء الرّفض والثوره
واعبر فوق مِرْآتي !!
واجهش :
« لستُ منتمياً » !!
فيضحكُ وجهَ مِرْآتي !!

. . .

تَمَدّدَ داخلي
فصقَتْتُ فوق تراكُم الأشياءْ
وحين النّبْمّ من حولِي مَدَارُ الرعشةِ الأولى
تَدَامَجَ نصفي المرئيُّ ..
وانكفأتْ تجاعيدي على الأعضاءْ
دُوارُ البحرِ في عينيّ ..

والأنواءُ في كلماتي الزرقاءْ
انا ..
إنسانُ هذا العصر ..
والعصر الذي لم يكتب التاريخ
هَزَمْتُ محاوري .. وهُزِمْتُ !!
وقلتُ شهادتي ..
صمْتاً عن التجديف والحكمه !!
وقلتُ شهادتي ..
ضَرْباً بسيف الحكمةِ التجديفْ !!
وكنتُ تركتُ فوق موانىء العالم ..
وتحت نوافذ الأمطار ..
أشعاراً .. بلا تأليفْ !!
أعُودُ .. إلى صديقي الشّعر !!
أُقامرُ فوق مائدته !!
وأقتُلُ نصفَه المحشُوْ بالأرباب .. والحكْمه !!
وأقتُلُ نصفَه المحشُوْ بالأفنانِ .. والتحريفْ !!!

كلمات عن الحلم واليقظة

خالد محي الدين البرادعي
- الكويت -

قلتِ لي ماذا ؟
وكانَ الوَشْمُ يُمْلي من يَدَيْكِ
قصةَ الساحبِ حَبْلَ الشِّعْرِ والحُزْنِ إليْكِ
وأقاصيصَ الهوى المجبولِ بالحرمانِ والقهرِ ليرْوي ..
ظَمَأَ الأحلامِ ياسيدتي من شَفَتَيْكِ

* * *

صورةٌ صاحَبْتُها .. في رحلَةِ العُمْرِ . إلى آفاقِ ظَنّيْ
ضَوْءُ ليلي .. تَخَطَّتْ ..
عَثَراتِ الدوبِ في واحاتِ حُزْني

كُنْتُ أجتازُ صَحارى الصَّيْفِ في بُرْدَتِها العَذْراءِ ..
أو أجْتازُ في ظِلِّ حكاياها .. شِتاءاتي المُمِلَّهْ
وعلى أجْنِحَةِ الشَّوْقِ إلى حُبٍّ تَراءى
من وراءِ الأُفُقِ الباهِتِ .. أَسْتَحْلِبُ وَصْلَهْ
وَاحتيالاً كانَ حُلْمي
عابِقَ الرؤيا بأنفاسِ التَّمَنِّي
وَلكِمْ أسْمَعَني . مُنْسَحِقُ الجِسْمِ مُغَنٍّ
سَوْفَ نَلْتقي - حينَما تَهْدِمُ جُدْرانَ المنامات -
مَصيرَ المُطْمَئِنِّ

* * *

آه لَوْ تَصغين للمُغْتَرِبِ العائدِ ..
من تَرْحالِه .. بَيْنَ الدُّمى
في غابة الأطلال شاخت قدماهُ
كائنٌ يرسمُ في تاريخه قامَتَهُ ..
امتَصَّ من الجوع رؤاهُ
وبقايا شُعلةٍ أَطفأها القهرُ ..
فنامتْ في الأماني مُقلتاهُ

* * *

رُبَّ حُلْمٍ كُنْتُ قدْ صاحبتُهُ
في ظلمة الدروب إليك

قد تلاشى
فرَّ بعد السّفر المحموم منّي
وإليك
كُنتُ أرتادُ سهول الظّنّ محمولاً على اجنحة الشوق ..
إلى اصباح أمني
ورفيقي في مناهات السّرى ، ظني بأني
سوف ألقى ـ بعد جُدران المنامات ـ
مَصير المُطْمئنّ
حلمٌ ، صاحبْتُهُ دهراً ولكنْ .. فرّ مني

* * *

قلْتَ لي ماذا ؟
أتروين حكايا الشوق في بَسمة صمتْ ؟
أخبريني
تنبشين الخائف المخبوء في ذاتي .. وسرّاً
كان قدْ جمّدهُ سيْرُ القرون ؟
هكذا صمْتُك ياسيدتي أقْوَ أهُ
مُنذُ ماعرّيْتِ بالعودة اصنام الأكاذيب ...
وحُراس السُّجون
وارى في ألَم .. يلْجمُهُ تغرُك ذاتي
وأنيناً .. يجمعُ التائه في ليْل شتاتي
أخبريني

كيف يَجتازُ ربيع الحُبّ ليلي ومُوانِي
حَدّثيني . حَدّثيني ..
كَسّري عَنْ مِعْصَمِ الحُبّ سواراً مِنْ فُتون
واخرُجي من حُفْرة السُّلطان ..
من تَنوُّر سَجّان السّنين

* * *

مزقيها كُتُبَ الأمس ..
وفضي عن فم الآتي صمته
وارقصي في مهرجان الصبح ..
في حومة رواد القرون المقبلات
واصرخي ملء الفم المشتاق ريّاً القبلات
: « إن أعناق القوافي
وركوب الشاطىء المزروع بالوهم ..
وأسفار المريدين ..
وأفراس المديح .. انقرضت ..
والحارس الأعمى على الأرحام ماتْ
والملايين الملايين البقايا المهملاتْ
مزّقوا الأستار .. فكوا لجم الصبح ..
لنزت ريحُهم عن عبق المفروس في مزرعة الآتي
ورشّوا في شبابيك الجواري كلماتْ
زرعوها في رماد اليتم . في بحر دم القتلى ..
سقوها من ينابيع النجوم المبعداتْ » .

* * *

حدثيني
أفرغي الصمت ببئر الأمس
في سرداب هارون .. ضيعة برمكْ
واقطعي الحبل الذي شد يزيداً لأبيه
إن جيش الصبح يا سيدتي قرر أنْ
يدفن القتلى أمام القصر كي تنبت أشجار الحياة
مرة لو تثقبين الصمت في بحر السكونْ
لترىْ ما خبأ الانسانُ تحتَهْ
أي دنيا ..
أيّ كوْن ..
أيّ ضوء ..
نام تحت الجمد البادي على السطح
فهل صدّقت صمْتَهْ
وتعالت طقوس الموت تحت الشمس ..
بل أطعمت نبْتَهْ
وبذورُ الزمن الظمآى أضَعناها وغارتْ
في موات الترب .. تَستجلِبُ موْتَهْ

* * *

زغردي إن دمدم الطوفانُ يا سيدتي
إنه من أجلِكِ الطوفانُ جاءْ
وارقُصي في عُرُس الغرقى
فانّ الرِّدّة الجهْلاءَ أوْدتْ

بِكَسيحِ الفِكْرِ ذي الصَّوْتِ الخَواءْ
قَبْلِي أَطفالَكَ الآتين .. يومَ انتَفَضوا ..
عَن غَضَبِ الطوفانِ كَي تَنجَيْ ..
فَما سِحرُ الأساطيرِ سِوى نَشوةِ مَشلولٍ يُعاني
نَزَواتِ الضُعَفاءْ
وادْفَعي أُطْفالَكِ الآتين كَيْ يَبْنوا
- إذا ما هَدأَ الطوفانُ - أَمْثالَ قُصورِ الفُقَراءْ
فَعَلى آخِرِ ما تَجْري رُؤى الطوفان ..
خَصْبُ الزَّرْعِ ..
والاعمارُ ..
والفِكْرُ ..
وحِبْرُ الانبِياءْ

كأس النبيذ..

عيسى الناعوري
- عمان -

مـــاذا تفعل تلك الفتاة الجالسة هناك الى المائدة وحيـدة ، وأمامها كأسان مليئتان بالنبيذ الأحمر ولكنها لا تحاول ان تشرب منها ، بل تنظر اليها في خشوع واستغراق ؟

كذلك كانت حينما دخلتُ الى المطعم مساء للعشاء ، واتخذتُ مكاني الى مائدة محاذية لمائدتها ، لا تفصل بينهما غـــير طريق ضيقة تسمح فقط بمرور النادل لخدمة الزبائن على الموائد الأخرى .

لقد اثار منظر الفتاة في جلستها تلك فضولي : انها تكاد لاترفع عينيها عن الكأسين اللتين امامها ، وذراعاها متكئتان الى حافة المائدة ، بينما تعبث أصابعها اللطاف عبثا متواصلا بقاعدتي الكأسين في استغراق ذاهل .

وظلت عيناي عالقتين بها ، حتى حين جاء النادل يسألني بالجرية عما اريد ان اشرب أو أن آكل ، لم افطن لقامته المديدة المنتصبة امامي ، الى ان اعاد علي السؤال ، فانتفضت من شرودي وكأنني استيقظ من النوم ، واعتذرت اليه بالانكليزية ، فأعاد علي السؤال بالانكليزية هـذه المرة ، فقلت : « نبيذ أحمر » . فانحنى الرجل امامي انحناءة خفيفة ثم انصرف ليحضر النبيذ . وعادت عيناي تنظران بفضول شديد الى الفتاة المستغرقة في ذهولها على المائدة المحاذية .

وهممت بأن اقول شيئا لكي ألفت انتباهها، ولكنني لم أدر ماذا اقول فاكتفيت بأن اتنحنح . فالتفتت الي التفاتة بطيئة دون ان يظهر على وجهها اي تعبير . فابتسمت لها ، وقلت بمثل الهمس بالانكليزية ، فهزت رأسها علامة الاجابة ، وابتسمت قليلا ، ثم ادارت رأسها وعادت الى سهومها الذاهل ، والكأسان امامها لاتحاول ان ترفع ايامنها من مكانه .

وعاد النادل يحمل زجاجة النبيذ ، فوضعها أمامي بعد أن نزع غطاءها ، ثم حمل دفتراً صغيراً وقلماً ، وسألني عما أريد أن أتناول من طعام . فنظرت الى قائمة الطعام التي أمامي على الطاولة ، ورحت أفحص أنواع الطعام المسجلة فيها ، ثم قلت : « قطعة بفتيك مع البطاطا المقلية والخضار ، ثم فاكهة ، وفنجان قهوة»

وانصرف النادل ليحضر الطعام ، وعدت أنظر الى الفتاة من جديد : كانت ماتزال ساهمة شاردة الذهن ، وعيناها لاتفارقان الكأسين أمامها، واصابعها الناعمة الصغيرة تعبث بقاعدتيها بلطف وبطء .

ونظرت الى مائدة مقابلة للفتاة في أقصى غرفة الطعام الصغيرة ، فاذا هناك شاب يجلس مقابلا للفتاة ، تفصل بينه وبينها مائدة واحدة . كان الشاب يحدق

بالفتاة تحديقاً شرهاً محموماً ، وكلما لمح منها التفاتة شاردة نحو مائدته انداحت على وجهه ابتسامة عريضة ، وصوب إلى الفتاة نظرة شهوانية نهمة لايستطيع اخفاءها فتخفض الفتاة بصرها الى مائدتها بسرعة ، وتروح تداعب الكأسين أمامها في صمت محير كأن نظرات الشاب نحوها مفضوحة بشكل مثير ، ولا سيما انه كان يجلس وحيداً في أقصى المطعم ، وامام أنظار جميع الزبائن . وحين كان يرى عدم التفات الفتاة نحوه كان يبدو عليه الاضطراب الشديد في حركاته وتصرفاته ، حتى ليكاد يقفز من مكانه نحو مائدتها لتلتفت اليه . وقد لاحظ جميع الرواد المنتشرين على الموائد القليلة شراهة نظراته ، وعصبية حركاته ، كما لاحظوا عدم استجابة الفتاة ، وبرودتها المتناهية امام نظراته الوقحة .

وراحت عيناي تتنقلان بين مائدة الفتاة ومائدة الشاب ، وكلما تناولتُ لقمة من الطعام الذي احضره لي النادل ، او شربت جرعــة من النبيذ ، عدت التفت الى المائدتين ، فأرى استغراقة الفتاة امام كأسي النبيذ ، ونظرات الشاب النهمة الهاء، وأمامه كأس نبيذ كذلك يسرع الى رفعها كلما رأى عيني الفتاة ترتفعان عن المائدة قليلا ، فكأنما يدعوها الى ان تشاركه نخباً . ولكن الفتاة لاتجيب ، بل سرعان ما تعود الى خفض بصرها الى كأسيها اللتين لم تحاول رفع اي منها .

واردت ان الفت انتباه الفتاة مرة اخرى بعــد أن فرغت من تناول الصحن الاول .. فجرعت جرعة من النبيذ ، ثم تنحنحت مرة أخرى وانا التفت نحو الفتاة . فرفعت عينيها الي ببطء كالمرة الاولى ، وابتسمت هذه المرة قليلا . فملت عليها حتى كاد رأسانا يتلامسان ، وهمست وانا أشير بيــدي الى مائدتي :

« هلا تفضلت بمشاركتي يا آنسة ؟ »

فابتسمت الفتاة ابتسامة بطيئة ، فيها حزن ظاهر ، وانشغال بشيء بعيد وهزت رأسها هزة خفيفة علامة الاعتذار ، ولكنها لم تحول عينيها عني هذه المرة . أتراها وجدت بهذا وسيلة لتحاشي النظر الى العينين الشرهتين في اقصى المطعم ؟!.

وشجعتني ابتسامتها الطويلة ونظرتها الطويلة الي على ان أسألها :

« أتتكلمين الانكليزية ؟ »

فهزت رأسها وما زالت تنظر الي وتبتسم . فقلت بالايطالية :

« أو تتكلمين الايطالية ؟ »

فهزت رأسها نفياً من جديد . فعدت اقول بالفرنسية :

« وهل تتكلمين الفرنسية ؟ »

فاتسعت ابتسامتها قليلا ، ولم تهز رأسها نفيا هذه المرة ، ولكنها كذلك لم تفتح فمها للاجابة ؛ وظلت تنظر الي وهي تبتسم ابتسامتها الحزينة المحيّرة .

ونظرتُ الى اقصى المطعم فرأيت وجه الشاب قد تحول الى الجد الصارم الحانق ، وقد اطبقت قبضتاه على كأسه بقوة كأنما يريد ان يحطمها . لقد غاظه ان تطيل الفتاة النظر إلي من دونه .

فتجاهلتُ نظراته الصارمة وحركاته العصبية السريعة ، وعدت اقول للفتاة بالفرنسية : « لماذا لا تتركين وحدتك وتنضمين الي ؟ » ، فلم تحاول ان تجيب ، ولكنها كذلك لم تُدِرْ وجهها عني ، بل استمرت تنظر الي باسمة ، واصابعها اللطاف الناعمات تداعب كأسها على المائدة . فقلت : « لعلك تنتظرين احداً ؟ » ، فلم تزد على ان هزت رأسها نفياً ، وظلت تنظر الي والابتسامة الحزينة لا تفارق وجهها . فازداد شعوري بانها انما كانت تحاول ، في اطالة النظر الي ، ان تمنع نظرها من الالتقاء بالعينين الوقحتين في اقصى المطعم .

ولاحظت أن الشاب قد اشعل سيجارة وراح ينفث دخانها وينفض رمادها في المنفضة بحركات عصبية ، ثم لايلبث ان يسحق السيجارة في المنفضة وهي بعد في اولها . ثم رأيته يجرع كأسه مرة واحدة ، ويعود فيملأها من زجاجة امامه ، ويشعل سيجارة اخرى ثم يسحقها في المنفضة وهو لايكاد يمسك اعصابه من الغيظ . فأدرت وجهي عنه وعدت أتناول الفاكهة وانا انظر بين الفينة والفينة الى الفتاة ، فاراها تنقل عينيها بين كأسيها وبيني ، وما تزال الابتسامة الحزينة الصامتة تكسو وجهها كله كلما تقابلت نظراتنا .

كان وجهها صغيرا مستديرا ، وشعرها اسود ينحدر حتى يغطي العنق . وكانت جلستها هادئة محتشمة . وكان صمتها محيراً حقا : لماذا لا تتكلم ؟ لا تقول شيئاً ما ؟ وكأسا النبيذ امامها لماذا تتركهما ممتلئين ، ولا تحاول ان ترفع ايا منهما الى فمها ؟ ثم لماذا الكأسان معاً ؟ ؟ لاشك ان هناك رجلا تملأ الكأس الثانية على اسمه ، وتتلذذ برؤيتها الى جانب كأسها . هناك قصة حب عميقـــة أليمة في حياتها ... فليتني اعرفها ! ! ليتني اعرفها ! ..

ورحت انظر في انحاء المطعم : غرفة صغيرة ليس فيها سوى سبع موائد وفي وسطها باب يفضي الى قاعة اخرى كبيرة تتناثر فيها الموائد العديدة ، والطاعمون يملأونها . وفي ركن من الغرفة الصغيرة ذات الموائد السبع يقوم البار ، والنادل يروح ويجيء بين الموائد حاملا زجاجات الخمر او صحون الطعام . وبين الحـــين والحين تفرغ مائدة من شاغليها لتعود فتمتليء بشاغلين آخرين . ولكن ثلاث موائد لا يشغل كلا منها غير شاغل واحد : مائدة الفتاة ، ومائدة الشاب الحانق الوقح ، ومائدتي . لعـــل منظرنا كان يوحي الى الزبائن بتجنب مشاركتنا الموائد ...

وكانت الى جانبي نافذة عريضة عليها ستارة شفافة مسدلة ، ومن خلفها الشارع الرئيسي يضج بالسيارات الصغيرة والكبيرة والمارة ، وبأصوات السيارات وطقطقة عجلات الترامويات المتلاحقة الى نحو الساعة العاشرة ليلا ، والاضواء الساطعة تملأ جنباته فتحيل الليل الى شبه نهار صاخب بالحياة والحركة والنور .

لاشك ان لكل سائر في ذلك الشارع العريض قصة ؛ هذا طبيعي . ولكن هنا في هذه الغرفة الصغيرة ، الملأى بالطاعمين ، فتاة لاتتجاوز الرابعة والعشرين من العمر ، جميلة ، حزينة ، لها قصة غريبة لا اعرفها ، وبي فضول شديد لأن اعرفها ، ولكن انا اهول اقرب الى كشف اسراره منها . أتراها بكماء؟ !

كلا ، ما اظنها بكماء ، ولكنها تخفي سرها في صدرها ، وتأبى حتى ان تفوه بكلمة واحدة ، او ان تشارك احداً على مائدة بانها في جلستها الطويلة الصامتة لا تأكل ، ولا تشرب ، ولا تدخن ، حتى النظر لاتجيله حولها ، الا ان يجيء عفوا ، او لترييح عينيها من حين الى آخر من التحديق المستمر في المائدة ، وفي كأسي النبيذ المنتصبتين فوقها .

وزاد في دهشتي ان النادل لايقترب منها : لايقول لها شيئاً ، ولا يسألها عن حاجة ؛ وهي ايضاً لاتحاول ان تدعوه لتقول له شيئاً ، او لتطلب منه طلباً . ان النادل - كما يبدو - يحترم صمتها وحزنها ، وقد الف منها ذلك لأنها تكرره كل ليلة منذ شهور ، كما علمت فيما بعد حين سألته عنها بعد ان غادرَتْ المطعم . ولقد ساورتني رغبة شديدة في ان اسأله عن سرها حين جاء يحمل الي فنجان القهوة ، ولكنها كانت ستسمعني لو سألته لحظتئذ ، ولا شك في ان السؤال كان سيثير

غضبها ، او ، على الاقل ، سيزيد من ألمها ، فهو تطفّل على شأن خاص بها . اذن لابد في تلك اللحظة من كظم كل سؤال ، بالرغم من فضولي الطاغي .

انها جميلة ، شهية ، ولا شك ان مجالستها ستكون متعة حلوة . ولكنها لاتجيب على كلمة مما اقوله لها ، وترفض ان تنضم الى مائدتي . وليس في وسعي ان اتطفل عليها بالانضمام الى مائدتها .

واشعلت سيجارة بعد ان قدمت لها علبة سجائري ، فهزت رأسها اشارة الاعتذار . ثم رشفت جرعـــة من القهوة ، وسحبت جرعة من الدخان ونفثتها امامي على المائدة . وهززت رأسي في حيرة : كيف أستطيع ان اعقد صلة بين الفتاة وبيني ؟ ان فضولي لن يهدأ ما دامت هذه الدمية صامتة الى جانبي ، ونظراتها تتعاقب بين كأسي النبيذ امامها وبيني ؟ وكلما تلاقت عيوننا ابتسمت ابتسامتها الحزينة المحيرة ، فقابلت ابتسامتها بابتسامة مثلها مع دعوة صامتة من لا تستجيب لها .

وتعمدت ان اطيل الجلوس املي الى اصل الى نتيجة ، او اكتشف السر : سر الحب الصامت الحزين . وظل الشاب الجالس في اقصى المطعم يحرق اعصابه بالغضب ، ويحرق السيجـرة تلو السيجارة ، ويجرع الكأس بعـــد الكأس ، والفتاة لا تنظر اليه ابداً .

وبلغت الساعة الحادية عشرة ليلا . لقد مضت ساعتان منذ ان دخلت المطعم ، وقد امتلأت المنفضة امامي باعقاب السجائر ، فبدلها النادل مرتين . ولم استطع استدراج الفتاة الى الكلام بأية وسيلة . لا شيء غير الابتسامة الحزينة ، والنظرات التي تتعاقب بيني وبين الكأسين . وأخيراً نهضت الفتاة عن مائدتها ، ووضعت شالها الصوفي على كتفيها ، ثم قبضت بيديها على أعلى الكأسين ورفعتها

عن المائدة ، وضمت احدهما الى الآخر كأنما هما يتعانقان عناقاً . ثم رشفت من كل منهما رشفة صغيرة ، وأعادتهما الى المائدة ، ثم غادرت المطعم .

أترى كانت الرشفتان قبلتين تبادلتهما بالخيال مع الحبيب المجهول الذي تجيء الى هـــذا المكان لتتذكره فيه ؟ ! لعلها هنا تجلس على المائدة التي كانا يجلسان اليها معاً .. ولكن اين هو هذا الحبيب المجهول ؟ ولماذا تجيء الان من دونه ؟ هل حدث له حادث اودى به فظلت تتحسر على ذكراه وتأبى ان تخاطب احداً غيره ؟ !

وما كادت الفتاة تغادر المائدة وتمضي نحو الباب للخروج ، حتى رأيت الشاب الحانق الوقح ينهض بعصبية من مكانه ، ويمضي خلفها مسرعاً . وانطبق باب المطعم خلفهما ، ثم ابتلعتهما زحمة الشارع .

ترى الى اين تمضي الفتاة الحزينة الصامتة ؟ وماذا سيكون من شأن الفتى الحانق معها وهي التي تجاهلته تجاهلاً مهيناً طوال جلوسها في المطعم ؟!

وحين سألت النادل عن امر الفتاة لم يستطع ان يفيدني بشيء . فغادرت المطعم كئيباً بعد ان القيت نظرة حزينة مشفقة على كأسي النبيذ المهجورتين اللتين تطويان سراً لم اصل الى كشفه ، واللتين تحملان آثار قبلتين من شفتين تحترقان شوقاً الى حبيب بعيد ...

الرحيل عبر ينابيع الصمت

علي سليمان

كالضوءْ ..
تشرقُ في ظلمات الأعماقْ
كالأمطارْ ..
تنبت في كسلي الروحي
وفي صحراء رغابي
حمّى الأشواقْ
ترحل بي ، تركب أجنحةَ الليل
وأعراف الاشراقْ
تُبدلني من صوفيٍّ ، خشبيِّ الروح
الى جنيٍّ غجري النزواتْ
توصلني بينابيع الصمت المتحدّر

من فجوات الرغبات
ترميني خلف تخوم الخوف
وأبعد من حد الشهوات
تتركني في إشراق الكشف
مغمى ،
عيناي ، دروبي ، ضوء القبلات
أتحسس أطراف الدنيا ، أرحل فيها
عبر الافلاك ،
وفي كل شعاب الفلوات
أعبر أنهاراً من غضب وجنون
وجسوراً ..
وأرنق في كل الخلجات
أترك خلف الغيم وخلف النجم
شظايا من قبلي ،
وأعود ببعض النثرات

* * *

شفتاك مدار
ينقلني من عالمي السفلي
يحول أنهار همومي
أزهاراً ،
يعزلني عن شلال الأحزان ،

يفتح صدرَ البحر ...
على عالميَ الرمليّ
ويُمطره ضوءاً
آمالاً شقراء
عناقيدَ حنان ...
يخلق من أحزاني
وعذاباتي ...
أحلاماً ، ولذاذاتٍ زرقاء

* * *

يرحل بي طعمها
عبر مذاق الخدَر الأسمر
عبر دروب الجسد الفانيّ
عبر شعاب الرغباتْ
يبعثني في ظلها
وشوشةً لاتصحو ،
جوعاً ،
نبتاً وحشيشاً ، بجنون الورقاتْ

* * *

مُرمى في ليل شفاهك ،
في ارجوحات
من خدرٍ

ومدارات من ألحان ..
أرحل عبرهما ،
أجتاز ينابيعَ من النار
سماوات من وديان ..
أنعبب ألحاناً
وغيوماً ،
تُمرع في أعماق الصحراءْ
وتصخب في صمت سكوني
الخلجان ..
أبذرُ في رَحِم الكون
خلودي ،
وأبقى في نسغ الأزمان ..

النهر (١)

معلى الصّارم

قرأت مسرحية الشاعر الأستاذ سليمان العيسى بإمعان ورويّة ، وكان اعجابي بها - وهي على ماهي عليه من رقة وجمال - بأكبر من إعجابي بالشاعر نفسه - وهو من ذرف على الخمسين - كيف رجع الى الطفولة فصورها بأجلى وأحلى مظاهرها ، رجع الى الطفولة فأرانا ذاته يضحك ويلعب بين أترابه ولداته ، يجري معهم هنا وهناك ، ويجلس تحت ظل الشجرة الوارفة هنالك ، يقف على الجدول المترقرق يغمس يديه بالماء ، يتحدث بلغة الطفل ويرتع ويلعب بعقلية الطفل وفكره وبراءته .

إن الشاعر كسليمان العيسى الذي جرب الحياة وتذوق آلامها وأهوالها فأغنته هذه التجارب أن يمد بصره الى المستقبل فيحدث عنه ، أن

(١) سليمان العيسى - النهر - منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧١ .

يصور فيأتي بالخلق والابداع ، أن يعمل كل شيء ، أما أن يرجع الى الطفولة فيعرض صورها وأفكارها لم ينس منهـــا شيئاً ولم يضع منها كلمة فهذا هو الإعجاب .

هذه المسرحية التي أجراها على ألسن الأطفال ترمز الى الاحتلال الصهيوني للأرض العربية ، زرعها في حسهم تنمو وتكبر كلما نمو او كبروا ، حتى اذا بلغوا مرحلة النضوج ووقفوا على حد كبير من الوعي عرفوا معنى الخير والعمل له ، ومعنى الشر و كيفية مقاومته ورده .

فلنقف الآن على النهر رقراقاً صافياً كأنه عين الديك أوذرات الضياء ، يتعرّجُ بين الاشجار هادئاً في السهل المستوي صاخباً في المنحدرات ، يتفرع جداول كثيرة بين المزارع والحقول فتعطي الخير وتمنح الجمال ، لنقف معه فنشهد أسراب الأطفال تمرح وتغني جاءت لتستحم بماء النهر ، فهم بين غائص في قعره وعائم على صفحته .

جينا يا نهر الأفراح
جينا
مروان أقوى سباح
فينا
جينا نمرح
جينا نسبح
يانهر الأطفال

حتى اذا خرجوا من النهر تجمعوا في مكان معشب زاهر فنظموا حلقة الدبكة يقدمهم الكناري (شاعر المعركة) وهو ينشد :

مدوا يا أطفال مدوا
أيديكم في الحال مدوا
وانسابوا تحت الصفصافة
مثل الأنسام الرفافه

وتردد الجوقة من حواليه هذا النشيد الساحر ، فاذا انقضت تلك الموجة الرائعة وساد الصمت انبعث بينهم صوت الموسيقى كأنه صدى الماضي البعيد تتناقله الأجيال ،

وهكذا يمر الشاعر في مشاهد المسرحية يصور الأرنب والبطة والكناري في المكان نفسه وعلى النهر نفسه ، فيفاجئهم الرجل الغريب يرميهم بنظراته المريبة فينسحبوا الى مكان في أعماق الغابة ويخيم على المسرح ظلام كثيف .

لقد بدأ الأستاذ العيسى يغني الأطفال أناشيده فنظم نشيد « عصفور طلال » ونشيد لعبتي ، وجاءت مسرحيته هذه ، ولم يبرح الشاعر الذي كنا نعرفه في شبابه وأهواله وآماله ، لم ينزل عن مستواه كشاعر وان غنى الأطفال بلغتهم وحدثهم بلهجتهم ، اذ من القدرة بمكان أن ينزل المعلم القدير الى مستوى طلابه ليفهموا عنه حديثه . فللاستاذ الشاعر شكرنا وشكر الأطفال .

الطلبة
نقابة أم حزب ؟

ظافر عبد الواحد

مايزال النادي الثقافي العربي في بيروت يصدر مجلة (الثقافة العربية) منذ حزيران ١٩٥٧ .

ولكن (الثقافة العربية ٧١) انقلاب في تاريخ مجلة (الثقافة العربية) .
فقد قررت إدارة المجلة تخصيص جزء من كل عدد لبحث موضوع واحد بعمق . وسيكون لكل عدد رئيس تحرير زائر يدعى على أساس مساهمته الجدية في هذا الموضوع .

ولتجدد المجلة شبابها ، تعاونت مع شاب مثقف أنهى دراسته مؤخراً في علم الاجتماع في جامعة باريس ، هو جودت الرامي ، ممنه سكرتيراً للتحرير ثم مسؤولاً عن التحرير .

وسجلت في مجلد الأعداد ١ – ٢ – ٣ وقائع ملتقى الشعر الحديث الذي عقد في بيروت في أواخر عام ١٩٧٠ .

أما مجلد العددين ٤ – ٥ من هذه المجلة الشهرية فهو عن (الحركة الطلابية والثورة) .

إذا كان نضال الطلاب العرب في النصف الأول من القرن العشرين جزءاً من النضال الوطني ، فما هي أهداف الحركات المعاصرة ؟

ماهي علاقة حركات الطلبة العرب بالحركات العالمية ؟

ماهي علاقة حركة الطلبة في العالم بالتنظيمات السياسية ؟

هل كانت حركة ١٩٦٨ في فرنسا بقيادة كوهين بنديت نابعة من أوساط الطلبة ؟ ألم تستغلها الصهيونية للضغط على الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديغول بعد مناهضته لها ؟

إذا كانت شبيهة بكومونة ١٨٧٤ فلماذا لم تكن بيادرة من الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولماذا أصبح زعيم هذه الحركة نجماً سينمائياً في هوليود ؟

قد يرد زعماء هذه الحركة الطلابية بأن الأحزاب الشيوعية التقليدية تخلفت عن الطليعة .

طارق علي باكستاني الأصل يدرس ويقيم في بريطانيا يبلغ من العمر حوالي ٢٥ عاماً . من قادة الحركة الطلابية في بريطانيا ، يرى أن الحركات الطلابية شهدت نوعين من التطرف : الأول هو (الانحراف الطلابي) الذي عبرت عنه هذه القناعة الساذجة بأن الحركة الطلابية قادرة على القيام بالثورة ، وذلك انطلاقاً من أن التناقض بين رأس المال والعمل لم يعد قائماً في المجتمعات

الرأسمالية لأن العمال قد تم استيعابهم . والثاني هو (الانحراف العمالي) الذي يعتقد أن مهمة الثوريين هي إخراج الطلاب من الجامعات إلى المصانع .

يرى (روي مورو ماريني) في عدد تشرين الأول ١٩٧٠ من مجلة (الأزمنة الحديثة) التي تصدر في باريس ، أن قمع حركات العمال في المكسيك حرم الطلاب من كل سند خلال حركة ١٩٦٨ . أما في البرازيل فإن إقصاء القيادات الجماهيرية بواسطة الديكتاتورية العسكرية سنة ١٩٦٤ ، قد وجه ضربة شديدة إلى الحركة العمالية التي حصلت على استقلاليتها حديثاً ، وكان القطاع الطلابي أقل تأثراً بهذه الضربة بفضل تنظيمه المستقل عن الحكومة والذي سبق له أن خاض تجارب عديدة وهو الاتحاد الوطني لطلبة البرازيل . لقد كان الطلاب أول قوة من قوى الحركة الشعبية تعيد تنظيم نفسها وتنتقل إلى ميدان العمل السياسي الذي وصل إلى ذروته في مظاهرات عام ١٩٦٨ .

برزت البوادر الأولى للحركة الطلابية التركية عام ١٩٦٥ . كان للطلبة حينها ناد يعرف بنادي الفكر الحر ، والذي خضع في بداية الأمر لسيطرة حزب العمال. لكن هذا الحزب أصر - رغم إلحاح الطلبة والشباب - على الاستمرار في سياسة المحافظة ورفض النضال ضد الوجود العسكري الأمريكي في تركية خشية مجيء حكم ديكتاتوري للبلاد . واستمر النزاع بين الطلبة والشباب وبين الحزب، حتى تم الانفصال التام عن سياسة الحزب وذلك عند حدوث الانتفاضة الطلابية الأولى عام ١٩٦٨ .

ومن العجيب أن الاقتصادي البلجيكي أرنست مندل ، في محاضرته التي ألقاها في جامعة كولومبيا في ٢١ نيسان ١٩٦٨ في دراسة الحركة الطلابية ، يشجب سياسة التخريج حسب حاجة المجتمع ، فيورد على لسان الإصلاحيين

الليبراليين في العالم الغربي قولهم : « ففي البلد الذي يحتاج مئة ألف مهندس سنضمن تخريج مئة ألف مهندس عوضاً عن خمسين ألف عالم اجتاع وعشرين ألف عالم فلسفة لن يجدوا وظائف تؤمن لهم دخلاً جيداً » . وكأن مندل يبارك الجامعات العربية التي تخرج ألوف النظريين مقابل عشرات المهندسين .

ونلاحظ التناقض في معالجة الموضوع ذاته على يد الدكتور فؤاد شاهين الذي يرى « أن التوجيه الحقيقي هو إفساح المجال أمام مؤهلات الفرد وكفاءاته كي تنمو (١) » وذلك رداً على الذين يقولون بتوجيه المتعلمين حسب حاجات المجتمع . ألا يؤدي الاختصاص خلافاً لحاجة المجتمع إلى هجرة الأدمغة التي يتحدث عنها الدكتور شاهين في شجبه للبعثات الثقافية الأجنبية التي تسعى لإعداد عمال مهرة وملاكات تقنية وتسهل تهجيرها لأنها لا تجد عملاً بالنسبة لاختصاصها ؟ ويعترف الدكتور شاهين في نهاية المقال بضرورة تلبية التعليم المهني لحاجة المجتمع من اليد العاملة الماهرة .

في الصفحات الأولى من عدد حزيران من (الثقافة العربية ٧١) مقابلة مع رئيس التحرير الزائر تيسير قبعة الرئيس السابق لاتحاد طلبة فلسطين ، رأى فيها أنه جرت بعض التشنجات غير الموضوعية من قبل حركة المقاومة تجاه عدد من القوى الوطنية العربية . ويبدو أن المقابلة جرت في آذار الماضي ، لأنه قال فيها : « خلال الشهر الفائت حضرت مؤتمر اتحاد الطلبة العالمي في براتسلافا » . وقد نشرت في العدد نفسه أهم الفقرات التي جاءت في تقرير المؤتمر العاشر لاتحاد الطلاب العالمي الذي عقـــد في براتسلافا في تشيكوسلوفاكيا ٣ - ١٠ شباط

---

(١) الدكتور فؤاد شاهين - مشكلات التعليم ماقبل الجامعي في لبنان - مجلة الثقافة العربية ٧١ - بيروت - حزيران ١٩٧١ ص ٤٣

١٩٧١ . وجاء في التقرير أن أمانة سر الاتحاد عبأت كل الوسائل الممكنة والرأي العام الطلابي العالمي من أجل إطلاق سراح تيسير قبعة وغيره من أعضاء الاتحاد العام لطلبة فلسطين الذين أوقفتهم وحاكمتهم السلطات الإسرائيلية . ونفى تيسير قبعة معارضة الاتحاد الطلابي العالمي لقيام وحدة طلابية عربية .

ماهي علاقة الأحزاب اليسارية العربيـة بالحركة الطلابية ؟ يرى كميل حوا أن « من أسباب عـدم تصعيد إضراب ٢٨ كانون أول في لبنان أن جزءاً كبيراً من جمهوره الطلابي كان يشترك في المعارك الطلابية للمرة الأولى في حياته، فلم يكن يملك القناعة والتجربة والإرادة المحسومة التي تدفعه خارج الجامعات ، مما جعل الأشكال السلبية من الضغط ، كالاعتصام والصيـــام عن الأكل ، هي الأشكال الرائجة للضغط حينها » . (١)

جربت بعض الجامعات السكاندنافية تسليم إدارة المطاعم الجامعية للطلبة، فشكا الطلبة من بيروقراطية الإدارة الطلابية.

الطلاب الجامعيون يفشلون في تدبير قوتهم ، فما بالك بالطلاب الذين لم يبلغوا سن الرشد !

الطالب الذي بلغ سن الرشد يجب أن يبدأ العمل أثناء الدراسة ، وبالتالي ينتسب الى نقابة ، ويحق له الانتساب إلى حزب يمارس من خلاله نضالاً سياسياً واضحاً .

(١) كميل حوا ـ الانعزالية الشابة والولادة الطلابية الجديدة في لبنان ـ المصدر السابق ـ ص ١٥

جورج لوكاتش

عرض وتقديم : يوسف حبيب

صدر عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٧٠ كتاب بعنوان: « جورج لوكاتش » . وهو من تأليف هنري ارفون الأستاذ المحاضر في كلية الآداب والعلوم الانسانية في (كليرمون – فران) . وقد قام بترجمته الدكتور عادل العوا .

يرسم هذا الكتاب بوضوح وتبسيط ، الخطوط الكبرى لفكر لوكاتش الفلسفي والأدبي في كل تلوناته ، كما يعطينا صورة حية عن نضاله .

يتألف الكتاب من مدخل وثلاثة فصول وخاتمة كما يلي :

المدخل : مصاعب التأويل ، ١ – الكلية ، ٢ – الذاتية ، ٣ – الواقعية ، خاتمة : علم جمال ماركسي ، ثم يقدم المؤلف نصوصاً مختارة من كتابات لوكاتش .

هذا وقد ترجم الى العربية كتابان من كتب لوكاتش وهما : « وجودية أم ماركسية » وقد ترجمه الاستاذ جورج طرابيشي ؛ و « دراسات في الواقعية » وقد ترجمه الدكتور نايف بلوز . كما نشرت الفكر المعاصر في العدد ٧٧ – تموز – ١٩٧١ ثلاث مقالات عنه .

مصاعب التأويل

يحتل جورج لوكاتش منزلة فريدة بين الفلاسفة الماركسيين الذين عاشوا في النصف الأول من القرن العشرين ، منزلة المفكر ذي النزعة الانسانية الثابتة . فهو لم يتخل عن ذوقه الكلاسيكي ، ولا عن التراث الكلاسيكي ؛ ويستخدم في الوقت ذاته الفكر الماركسي على خير الوجوه التي في مكنته لذلك فهو محافظ وثوري بآن واحد ، ويتحلى بمرونة ذهنية رائعة ، وشجاعة كبيرة . فلا شيء يمنعنا اذا اخضعنا تراثه لقراءة مزدوجة في ضوء التراث الكلاسيكي والمذهب الماركسي .

عرف لوكاتش بداهة افلاس الوضعية ، الوضعية التي أصبحت القاعدة الايديولوجية للاشتراكية الديمقراطية الألمانية . فارجعت المذهب الماركسي الى ضرب من الحتمية المادية يبدو فيه التطور التاريخي وكأنه مستقل عن الارادة الانسانية . وبنظر لوكاتش هذه ازمة تؤدي الى طمس معالم الفكر الماركسي .

ورغم أن الفلسفة الجامعية الألمانية تجهد لتدارك نقائص هذه الأزمة بانشاء « علوم الفكر » . وأن الكانتية الجديدة تعتبر التاريـــخ الميدان الواسع « للقيم » الثقافية التي تحدد الواقع على الرغم من انها لاتوجد فيه . رغم كل ذلك يدين لوكاتش « الكانتية الجديدة » بقدر ما ان المثالية الذاتية وهي مجرد « وضع انسحابي » في المجتمع الليبرالي ، تؤول الى تبرير المؤسسات القائمة . ولكن ذلك لم يمنع من ان يأثر مفهوم القيم في الكانتية الجديدة تأثيراً عميقاً واكثر دواماً في فكر لوكاتش .

وقد تأثر لوكاتش أيضاً بمذهب الحياة ، الذي ينظر الى الحياة على اعتبارها

قاعدة مشتركة تتجلى في صور مختلفة عبر التاريخ . ان فلسفة الحيـــاة تحمل في احشائها مذهب الواقعية الاشتراكية الذي يتسم بسمة الهواية الذهنية السمجة ، لقد خلقت مناخاً فلسفياً اتهافت الايمان بالفكر العقلي ، وتبدد الايمان بالتقدم . ورغم ذلك يقر لوكاتش مفهوم الحياة بالحدود التي رسمها (زيمل) ؛ فلا ينطبق مفهوم الحياة الكوني الا على الحياة الانسانية الجارية في اطار تاريخي .

وقد تأثر ايضاً بفينو منولوجية هوسرل ، التي تلح على الدلالة الخاصة لكل الظواهر الانسانية ، وتقيم الفن في وجوده الصحيح قبل أن تعين موقعه في التاريخ .

ان تعاليم هذه المذاهب الثلاث تلتقي كلها وتتفاعل في اول ماتشر لوكاتش « الروح والصور » . في هذا الكتاب تبدو القيم على شكل « صور » تؤلف « الجملة الشاملة » ، « مطلب الحياة الاسمى الملح » .

وكما تصدر القيم بانبثاقها عن « الحياة الأصلية » يجب « المصير » اللامعقول والكلي الشعر صورته . أما رؤية العالم فانها لاتخضع لشروط تاريخية واجتماعية تحددها بل انها الاعراب المباشر عن الحياة ، انها في نقائها الجلي تجربة الروح ، عنصر الحياة المحرك .

ويميز لوكاتش تمييزاً شديداً مجال الأخلاق عن مجال الجمال ، معارضـــاً بذلك المذهب الماركسي الذي يربط الفن بالممارسة الاجتماعية ، وهو يتخلى عن هذا التمييز للسبب ذاته .

فاذا حكمنا على لوكاتش بحسب آثاره الأولى ادركنا انه كان يشعر براحة تامة في استخدام هذه الفلسفة الجامعية ، كما ان دراسة هجل لم تنجح في ابعاده عن « علوم الفكر » . فكيف استطاعت هـــذه الفلسفة البرجوازية ان تصبح

مقدمة لعلم جمال ماركسي عند لوكاتش ؟ ألا تنطوي فلسفة الحياة ذاتها على بعض الامكانات التاريخية لهذا الانتقال من ابيستمولوجيا عينية الى اخلاق يسارية ، هذا الانتقال الذي رمم مسيرة لوكاتش الروحية ؟

فاذا امعنا النظر في مفهوم الصورة كما ابانه سيمل بدقة وجدنا ان هذا المفهوم يقع داخل الزمان ومن الممكن دمجه في التاريخ . اما الحياة فهي لازمانية وثابتة ، انها استمرار مطلق . انالحياة والصورة انبعاثان يصدران عن الموجود الذي يعكس صفته اللازمنيه . غير ان سيمل يفصل الصورة عن الحياة ، فتصبح الصورة عتيقة انعتاقاً تاماً بعدها لتلقي المضمون المتبدل . فبضغط مارسته فلسفة الحياة ، وبتعمق لوكاتش المطرد بالمجلية ، يتجه شطر المادية التاريخية . فيطالب بأن يعكس الفن علاقات الانتاج بصورة مباشرة ، متفقاً مع ستالين ، متنكراً للمباديء التي صاغها من قبل . ولكن هذا الفصام الفكري عند لوكاتش موقوت ، لأن لوكاتش يرجع الى مبادئه الأولى بعد موت ستالين . هكذا ينتقل لوكاتش من الفلسفة الكانتية الى الجدل الماركسي عبر فلسفة الحياة التي تنهض بالعبء الانتقالي .

لآثار لوكاتش بعد ثلاثي : أدبي وهو الجزء الاكبر ، الفلسفة السياسية ، وفلسفة التاريخ . غير أننا نميز خمس مراحل متعاقبة في حياته الفكرية : (١) المرحلة الاولى وتمتد من ١٩٠٧ — ١٩١٤ تأثر فيها بالمذاهب الثلاث السابق ذكرها . (٢) المرحلة الثانية من ١٩١٤ — ١٩٢٤ ، استمرار لما سبق ، مع انضواء تحت شعاب المجلية ، وتآلف مع ماركس ولينين . (٣) المرحلة الثالثة تمتد حتى ١٩٣٣ ، فهو هدف لهجمات مستمرة ، واضطر الى العودة الى الجمال ويبرز بأن التحاقه بماركسية أرثوذكسية . (٤) من ١٩٣٣ — ١٩٥٤ (موت

ستالين) ، مهاجراً في الاتحاد السوفيتي ، (٥) ينعتق من الستالينية عائداً الى أصالته . هـذا الترتيب التاريخي المفروض على فكر لوكاتش يبرز مظهراً بالـغ التمزق والتناحر في هذا الفكر . علماً بأن النظر اليــه من هذه الزاوية يهمل خطوط القوى الذاتية عنده . فهو يعلن بأن فكرة لم يعرف سوى هدأة واحدة استثارها قبوله بالماركسية ـ اللينينية . صحيح ان لوكاتش انتسب الى الحزب الشيوعي غير أنه حافظ ، ان لم نقل على حرية اختيار ، فعلى الاقل على اختيار متميز بحكم الاستناد الى المذهب مباشرة . فكتابه « التاريخ والوعي الطبقي » واشتراكه في الثورة المجرية ، كل هـذا أدى الى ان ينشر خصومه كتاباً جمعياً ضده بعنوان « جورج لوكاتش والمذهب التحريفي » .

ان اهمية لوكاتش مزدوجة فهو من جهة يعلن أن الماركسية تقوم على دفع التساؤل الانساني قدماً الى الامام وتقويته بدل ايقافه . ومن جهة اخرى يرى ان الجدل الماركسي أداة نافعة في تعرية البنى الداخليــة لمجتمع انساني بالدرجة الاولى ، وهذا موقفه من العالم الغربي ، وبه يعارض الحزب ومقرراته .

عارض في المجال السياسي « ديكتاتورية الطبقة الكادحة » بـ « الديمقراطية الثورية » ، واستعاض عن صراع الرأسمالية والشيوعية بصراع القوى « الديمقراطية » ضد القوى « اللاديمقراطية » . وفي الفلسفة افرغ نظرية لينين في الانعكاس من مضمونها الشيئي ، ورفض جدل الطبيعة . وفي مجال الادب طرح نظرية الواقعية الكبرى مقابل تفاهات الواقعية الاشتراكية . كما أسهم في المناقشات الفلسفية التي جرت في العالم الغربي . لقي اهمالاً غريباً في عالم الثقافة الألمانية . عاد نجم لوكاتش بالصعود من جديد رغم اشتراكه في الثورة المجرية .

الكلية

الكلية مقولة من المقولات الأساسية في فكر جورج لوكاش ، انها مقياس مطلق بالرغم من تحولاتها الكثيرة ، وهي تحميه من دوار النسبية . وهو يتصل بالايديولوجية الالمانية الكلاسيكية عن طريق مفهوم الكلية هـذا الذي يشخصه العالم الاغريقي .

الكلية شيء أصيل ، موقعه قبل إدراك الحركة التاريخية ، وهي أشبه بمعيار سرمدي تحتفظ بالحنين إليه ونشرئب نحوه بوعي يضعف أو يشتد . فكيف تكيف هذا التصور المثالي عند لوكاتش مع معطيات الهجلية والجدل الماركسي؟ إن هجل يجعل الفن اليوناني مرحلة من المراحل الحاسمة في تطور المعنى المطلق ، وهذه المراحل ثلاثة هي : الفن والدين والفلسفة . وعلى هذا يغزو الانسان اليوناني المطلق غزواً تدريجياً . وهذا الانسان ليس إلا حلقة انتقال مع أنه يبلغ بهـذا الانتقال قمة الجمال . أما ماركس فيقوي اندماج الفن في الحركة التاريخية . والفن اليوناني يمثل بنظره الطفولة الاجتماعية للانسانيه في أجمل لحظات نموها .

فكيف نوفق بين هذا المثل الأعلى وبين مقتضيات جدل صاعد يضع الكلية لا في بدء الحركة التاريخية بل في نهايتها ؟ كيف نرى في الفن قيمة سرمدية بالرغم من تاريخيته ؟ ان جواب لوكاتش متردد ملتبس . ففي كتابه « غوته » يسعى للحفاظ على المعيار الخالد للفن اليوناني ، وعندما يتكلم عن نظرية الأدب الحديث لدى شيلي فانه يكشف النقاب عن تبعية شديدة للجدل الهجلي . وذلك باقحام مفاهيم الخاص والعام في آرائه الجمالية . غير أننا مانكاد نمنح مفهوم الخاص والعام مضموناً مشخصاً بحسب الجدل الماركسي ، حتى نلقى أن المعيار الرئيسي

الفن اليوناني قد عصفت به زوبعة الحركة التاريخية . ولكن إرهاف فكر لوكاتش لاينبجس في ستر تعذر المعايشة بين الكلية والجدل ، بين القيم السرمدية والنسبية . على هذا النحو يقدم لوكاتش الكلية وكأنها نوع من فردوس مفقود يمتنع علينا ولوجه إلى الابد .

مما اضطر لوكاتش إلى التمييز بدقة تامة بين مجال الجمال والأخلاق ، من أجل الوصول عن طريق الفن إلى « المعرفة الحقيقية المحددة المتعالية » . غير أن هذا التمييز لايتفق مع وجهة النظر اللينينية . والحق أن لوكاتش يرجح جانب العودة إلى نظرية ستالين التي، بالرغم من كل شيء، تترك بعض الحرية للنشاط الأدبي في اطار الفاعلية السياسية .

ويتجاوز لوكاتش التناقض بين جمالية اعتبرت في ذاتها ولذاتها وجماليـــة بفرض الواجب الاجتماعي عليها قيمة باظهار أن الأخلاق تنبثق من علم الجمال ، بدل أن تفرض عليه فرضاً . إن الذات الجملية يمكنها أن تحقق الاتساق بعد أن انتهى العالم الاغريقي ، إذ أنها باتجاهاتها نحو كلية تتفق مع امـــكانات المعاش قبلياً، تستطيع أن تحقق بمعزل عن العالم التاريخي الوحدة بين الذات والموضوع .

لقد كفلت الكلية فيما سبق اتحاد المضمون بالصورة اتحـــاداً لاينفصم عراه . ولكن بانتهاء العالم الاغريقي وبدء العالم التاريخي ، وجدت الصور الأدبية المفارقة لمضمونها . وقد نظر لوكاتش إلى الابداع الفني من زاوية مزدوجة هي زاوية اتخاذ هذا الابداع موضوعه إما الظاهرة ، أو ماهية الحياة نفسها ، وهنا يوجد بنظر لوكاتش الفارق الأساسي بين الدراما والنوع الملحمي .

فالدراما تتمتع أساساً من الماهية ، ولذلك فقد استمرت حية بعد زوال العالم اليوناني . غير أن استمرار صورة مسيطرة في الفن لهو على طرفي نقيض مع التصور الماركسي للفن . ولهذا عندما دفعه تأمله التاريخي الى استبعاد القبلية ، ربط مؤلفاته التالية بمحاولته « بمناسبة سوسيولوجيا الدراما الحديثة » لا بـ « نظرية الدراما » . واستطاع - في هذه المحاولة - أن يوضح العلاقات الوثيقة التي تشد الدراما البرجوازية إلى المجهود البرجوازي . فالدراما البرجوازية تهدف إلى تمويه

مصالح البورجوازيين ، ولذلك امتنع على الدراما الصادرة عن وحي صوفي وديني أن تتطور إلى شكل شعبي. وفي كتابه « الرواية التاريخية » يأول لوكاتش العلائق الديالكتيكية بين الشكل الفني والمضمون الفني على أنها انعكاس ، بل تعبير ، عن تناقضات المجتمع البرجوازي .

إن فكرة وحدة الذات والموضوع التي أقرها لوكاتش كمصادرة هي التي أنهت اضفاء الصفة التاريخية على الدراما . وبسبب فلسفة الحياة منح الشكل ميزة، وبسبب معانقاته لهيجل وماركس اهتم بالمضمون . ولكنه ظل يطمح الى التوفيق بين مختلف الاغراءات التي عرفها فكره .

وقد نجم عن زوال الكلية انفصام لايلتئم بين الروح والعالم . فالروح تسعى في « الرواية » الى اعادة امتلاك العالم . أما عن علاقات الروح بالعالم فقد جنح لوكاتش الى حالين قصويين لتصنيف الروايات داخل عدد محدود من الفئات : فاما أن تكون الروح مسرفة في الضيق فتعجز عن الاحاطة بالعالم ، وهذا مثل المثالية المجردة ، وإما أن تكون الروح مسرفة في الاتساع فلا تجد مكانها في العالم ، مثل الصبر الواعي لرومانسية الوهم ؛ وبينهما تلقى الزهد الاختياري في الرواية التاريخية ، وهي ثمرة تجارب حية واهنة .

غير أن الماركسية حملت لوكاتش على اهمال فصل الجمالي عن الأخلاقي في الدراما . ولكن هذا التنازل من قبله لايهدد نظرياته السابقة ، لأن الجمالي والأخلاقي يجتمعان معاً سلفاً في دائرة الماهوية التي هي موقع الدراما الدقيق . غير أن الأمر يختلف في النوع الملحمي ، إذ أن كل محاولة لوضع ملحمة طوبائية حقاً تؤدي بالضرورة الى الإخفاق ، لأن النوع الملحمي الكبير نوع مرتبط بالوضع المشخص للخطة التاريخية .

إن التكيف مع النظريات الماركسية يتم بصورة جزئية في مجال المضمون . فينتقل لوكاتش من مفهوم عام عن الحياة الى مفهوم خاص عن « الحياة الشعبية » .
ومثلما تحولت الحياة بالتدريج الى حياة شعبية ، فان البطل الاشكالي يفقد لاتحدده ويضطلع بعبء النموذج الأدبي . وان اتصاف الفرد بسمات شخصية

محددة لا يحول دون أن يكون انعكاساً للمجتمع الذي ينتمي اليه ، وللعصر الذي يعيش فيه .

ويذهب لوكاتش الى أن الشاعر الملحمي ينتقل من السذاجة الأولى الى السذاجة الثانية ، عندما يحمل المعرفة العضوية المباشرة من أجل معرفة تأملية . بيد أن هذه السذاجة الثانية ماتزال حنيناً الى فردوس مفقود الى الأبد . وفي كتاب « مشكلات الواقعية » (١٩٣٩) تصبح السذاجة الثانية بالتدريج الوعي الصحيح الذي يتعذر بدونه أن تنشأ أية ملامح فكرية . هـــذا الوعي يستمد صحته إن لم نقل من الحزب ، فعلى الأقل من المذهب الماركسي . وفي كتاب الرواية التاريخية يضيف وجهة نظر معاكسة ، ويظهر أنه على الرغم من زيف وجدان سكوت وبلزاك.. فانهم قد توصلوا الى «أعماق حقيقة الحقيقة التاريخية» .

إن قرب المنظور من الحياة وصدقه لا يتحققان عنـــدما تلصق حقيقة موضوعية واجتماعية ببعض البشر تشدهم اليها روابط واهية بل عندما ينبثق من تطورهم الواقعي ومن نزوعهم نحو هذا التطور » .

— ٢ —

الذاتية

يرسم الكتاب الذي نشره جورج لوكاتش سنة ١٩٢٣ ، وعنوانه : « التاريخ والوعي الطبقي » حداً فاصلاً بين الماركسية الغربية ـ وقد استخدمت الارثوذكسية الماركسية هذا التعبير للدلالة بوجه الدقة على محاولة لوكاتش — وبين الماركسية الروسية التي تستمد وحيها وتوجيهها من لينين .

ينتقد الماركسيون اللينينيون لوكاتش على أن تأكيده بأن التاريخ ملازم للوعي الطبقي ، يكافىء إعادة القيمة لوعي كان لينين قد أرجعه الى دور عاكس ،

كما أنه يعيد من جديد الى قلب الماركسية نزعات مثالية ، وهي نزعات اتهمها لينين بعرقلة العمل الثوري ؛ وأن الانطلاق من المقولات الفلسفية بعد تحميلها إضافة مجرد مضمون واقعي ، إن ذلك لاينتج سوى ابعاد الماركسية عن ميدان حركتها الحقيقية . وفي سنة ١٩٢٤ صدر حكم إدانة عليـه في المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية .

غير أن لوكاتش لم ينتظر انتقادات الحزب الصريحة . فسرعان ما خشي من أن يكون جدله لاذعاً ، فمارس النقد الذاتي . ورغم ذلك يرى هنري آرفون أن شهرة لوكاتش تستند على هـذا الكتاب الى مدى كبير .

فهل هذا الكتاب انحراف عقائد، أم تعبير عن فكر لما يرضخ بعد للعقيدة؟ يجب تقديم الجواب دون تحيز ، وذلك بتحديد موقع الكتاب بالنسبة الى آثار لوكاتش السابقة واللاحقة . إن لوكاتش يعرب عن أولية الطريقة الجدلية ، هذه الطريقة الصالحة لمعرفة المجتمع والتاريخ ، وأنه عازم على تنميتها باتجاه ماذهب اليه مؤسسوها . فلا بد من التمييز بين المذهب والطريقة لتفسير الدرب الذي ينصح لوكاتش بسلوكه للوصول الى مجتمع لا طبقي يشاطر الماركسية الارثوذكسية فيه . وقد قبل لوكاتش الجدل الماركسي في حال تمامه . ولئن كان الامر بالدرجة الأولى في نظر ماركس أمر تطبيق الجدل على الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي ؛ فان لوكاتش يعنى بالمضي بالجدل الى تمامه من حيث أنه أداة تحليل حركي ، وأن الجدل لاقيمة له إلا على قدر كونه كلياً .

يقدم الجدل الماركسي وسيلة توحيد الماهيـة بالظاهرة ، أو الذات بالموضوع . أما لوكاتش فيحسب أن في وسعه اتمام محاولة ماكس فيبر — وهو معلمه الفكري الى حد ما في فترة الشباب — الذي أقام باسم الثقافة نوعاً من الكلية التاريخية . وبحسب تعبير لوكاتش ، إن التماسك التام بجعل التجربة كليـة عالم التجربة ، هو وحده الذي يتيح معرفة القوانين المتضمنة في هذا العالم .

إن الجدة المطلقة التي تصورها لوكاتش في الجدل هي الأهمية التي يختص بها

الذاتية . فالتاريخ حصيلة تفاعل الذات والموضوع . أما عند ماركس فالذات تتبع الموضوع وتخضع له منذ منطلق الجدل ، فوجود الانسان الاجتماعي هو الذي يحدد شعوره . فبأي مرسوم يكون الشعور البرجوازي زائفاً في حين أن الشعور البروليتاري وحده يستطيع بلوغ الحقيقة ؟ لجـأ ماركس إلى مفهوم الـ « براكسيس » أي الفعالية العملية لحل هذه المشكلة ؛ غير أن البراكسيس عند انجلز يقتصر على الوجه التجريبي عوضاً عن أن يتخذ من نظرية ما موجهاً له . وهذا يؤدي بالماركسية الى الانزلاق نحو حتمية اقتصادية . ثم يُذكر لوكاتش بالمعنى الجدلي – الفلسفي لمفهوم « البراكسيس » أي لقدرة الذات على وعي الواقع التاريخي المعطى لها . وعلى هذا النحو تصبح الذاتية والحدث التاريخي أمراً واحداً . فهل يتعرض لوكاتش لخطر إرجاع الماركسية الى مثالية هيجل بعد أن تخلص منها ؟ ان هيجل يطلب من الشعور الفعال أن يقود الروح من المعرفة الظاهرية الى المعرفة المطلقة ؛ أما لوكاتش فيرى أن ثمة علاقة جدلية بين الذات والموضوع ، فالذات تحدد قرارها حسب الموضوع ، ولكن الموضوع من جهة أخرى تحدده الذات. وفي الحد النهائي تتنازل الذات عن نفسها من أجل الموضوع ، ولكن بنوع من الانقلاب الجدلي المعاكس تعود الذات للاستيلاء على الموضوع . على هذا النحو يضع لوكاتش الحرية في قلب الضرورة .

لم يكن توسيع الجدل بالذاتية ليناقض تقريباً الجدل المشخص عند ماركس الشاب ؛ بل ان لوكاتش يدعو الفلسفة الى مزيد من احترام اصولها الهجليـة . هكذا يصبح جدل الطبيعة معطلاً خلواً من كل اساس عند انجلز ، ويصبح الشعور ظاهرة ملحقة ، أما لينين فقد أكمل مفهوم طبيعـة قوامها الجدل بمفهوم الشعور انعكاساً . أما مذهب ماركس فانه يلتقي نفسه وقد اندمج شيئاً بعد شيء ، وتحت اسم المادية التاريخية ، في جملة اوسع توصف بأنها مادية جدلية .

وعند لوكاتش تدور المناقشة الحقيقية حول بقاء الواقع أو تحوله . إن الميتافيزياء تضفي على الواقع صفة ثابتة نهائية . والجـدل إذا لم تخضعه الى مجرد طريقة علمية ، فهو يرتكز على ثنائية الذات والموضوع كي يظل طريقة ثورية . وبذلك يرفض لوكاتش جدل الطبيعة .

ولكن ماذا عن البروليتاريا ؟ لقد اعتنق لوكاتش برهان ماركس في خطوطه الكبرى ، حتى جعل من البروليتاريا مبدأ السلبية ذاتها . فيبدأ بتضييق مفهوم البروليتاريا . فيرفض اتصافها بصفة طبقة ، وهو بذلك يرسم اتجاهاً ولا يعين حداً . إن البروليتاريا هي الكلية قصداً . وصيرورة المجتمع مجتمعاً اصبحت بيد البروليتاريا ، فهي إذ تضطلع بدور الرأسمالية تصبح « معرفة الموضوع ذاته » . وهي إذ تحذف ذاتها من حيث كونها طبقة ، تحذف سائر الطبقات وتقيم المجتمع اللا طبقي . « فالكلية قصداً » تكون قد وجدت في صميم البروليتاريا ، الطريق الى تحققها توحيداً بين الذات والموضوع . وفي ساعة الثورة يتحقق التطابق بين الذات والموضوع تحققاً تاماً ، ولكنها لا يختلطان رغم ذلك ، وتستمر المعرفة قائمة حيال الوجود . فالجدل هو التعبير عن هذه المجابهة الدائمة ، وهو لا يستعيد ذاته الا في صيرورة لا تنال . وعلى هذا النحو يعود الجدل ليستعيد في « التاريخ والوعي الطبقي » كثافته كلها .

من المحال تأويل التاريخ تأويلاً حاسماً في هذا الجدل المفتوح الى مالانهاية . ولذا يجب إن صح القول أن نقحم في قلب الجدل إنساناً يقيس العالم الذي يكتنفه مثلما يقاس هو به معاً . أما الاحتفاظ بالانسان وقد اصبح مطلقاً فان هو الا إبدال « الميتافيزياء العقائدية » بـ « نسبية لا تقل عنها عقائدية » وهو أمر لا يقبله لوكاتش .

أما البروليتاريا فتبلغ حقيقتها بتدخل مقولات الوساطة . والحزب هو الذي يمثل هذه « الارادة الكلية الواعية » ، وهو يضطلع بمهمة تحقيق الصيرورة الكلية ، ويساعد على الانتقال من وضع ذات قائمة في ذاتها الى وضع ذات من أجل ذاتها .

وبعد أن اعاد لوكاتش الجدل الى شكله الأصلي ربطه من جديد بأساسه الاقتصادي في كتاب « هيجل الشاب » ، وبذلك تسترجع الارثوذكسية الماركسية ابناً ضالاً كان قد وضع كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » . ويبدو عندئذ أن لوكاتش قد تخلى عن الجدل الكلي لصالح جدل الأشياء الذي يستعيض عن الشعور

بالعالم الطبيعي . فأصبح الشعور عاكساً . وعلى هذا النحو نجد انفسنا في محور العلاقات المتبادلة بين المقولات الاقتصادية والفلسفية .

يلح لوكاتش في كل كتبه التي تلت «التاريخ والوعي الطبقي» على اعتناقه لآراء لينين في نظرية المعرفة . ورغم ذلك استمر الجدل الكلي في السيطرة على تفكيره . وبعد أن ضحى بغية النجوع السياسي انكفأ الى ارض النقد الأدبي ، ليدافع عن الذاتية .

— ٣ —

الواقعية

مهما بدت لنا طريقة تعريف مفهوم الواقعية مجردة وان تحديدها يستشف تدريجياً من خلال آثار لوكاتش ، فانها مستقاة من الواقع المشخص ومن تلاحق الكفاح التاريخي في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية . فبين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ظهرت جبهتان، احداهما برئاسة لوكاتش وصديقه ليفشيتز والأخرى تضم جرميلوف و كنيبوفتش وألتمان، وقد احتد النقاش بينهما في مجلة الكلمة حيث تدخل لوكاتش بالمناقشة بمقالة عنوانها : «الأمر أمر الواقعية». إن تباين الآراء يعكس اختيارات سياسية متعارضة أكثر مما يعكس اختلاف الاذواق . وقد كلف لوكاتش عام ١٩٢٨ بوضع منهاج يحسب حساب خطر الفاشية في اوربا، فتوصل من ضرورة مكافحة الفاشية بجميع الوسائل الى واجب البروليتاريا في اعتناق فكرة ثورية ديمقراطية . فاعتبر الرفاق في الحزب وبيلا كون بوجه خاص أن ذلك يمثل انحرافاً يمينياً ، فرضخ لوكاتش من أجل انقاذ وحدة الحزب . وانتقل كعادته من السياسة الى علم الجمال . فجهد لاقامة وحدة العمل الاشتراكية والقوى الديمقراطية على صعيد الأدب حول مثل أعلى ديمقراطي . يقول: « إن المسألة الأساسية هي مسألة التقدم» . فمزج الديمقراطية البرجوازية بالبروليتارية تحت اسم « الديمقراطيـــة الثورية » . واختـــار شيئاً فشيئاً نموذج الكاتب البرجوازي الذي يلتزم بالعمل الى جانب البروليتاريا للدفاع عن التقدم والحرية من غير ان يبتر انتماءه الى طبقته . فالكاتب

العظيم يكشف ضرورة تجاوز فظائع الرأسمالية ، وامكان التطور الذي يطرحه هذا النظام . وقد جهد لوكاتش من أجل الحاق كبار الروائيين البرجوازيين بركب النضال ضد الفاشية . وانتزعهم من التأويلات الرجعية التي ذهبوا ضحيتها .

وقد اتاحت روايات المؤلفين الاشتراكيين « ارنست اوتوالت ، و ويلي بردل » له فرصة توضيح تصوره لأدب واقعي . ان الكاتب الحديث على مايرى لوكاتش يجد ذاته امام ثنائية هي ثنائية سرد الوقائع الذي يبرز المضمون الاجتماعي ، وانشاء الأشكال الذي يتكفىء الى الأدغال الكثيفة للنفس . فأولية المجتمع كلا متماسكاً هي الجواب على أولية النفس الانسانية . غير أن هذا التعارض تعارض آلي لاجدلي . فالسرد يشكو مما يشكو منه السبر النفسي . يقع انصار السبر النفسي في شراك مثالية ذاتية ؛ ويقترف الذين يلجأون الى السرد خطأ المادية القديمة ، فلا يعيرون التفاتاً الى الجدل الذي يحرك الاسباب المسيرة للمجتمع والتاريخ عبر دماغ الانسان كما يقول انجلز ، فهم يشوهون العوامل الموضوعية والذاتية عندما يفصلون بعضها عن بعض .

والمتعة الجمالية ماذا عنها ؟ وهي تعريفاً ، تعطي للفن غاية ذاتية تركزه حول نفسه بمعزل عن كل تحريض سياسي واجتماعي ؟ ماذا عنها والأدب على ما تقره عقيدة الحزب أداة من أدواة التحريض السياسي وهو سلاح ايديولوجي ؟ .

لقد ذكر لوكاتش بأن ماركس قد عني بآثار فنية لأنها آثار فنية . فانخرط بالمناقشة مع برتولد بريخت ، وكانت الخلافات بينهما كما يلي : يقترب لوكاتش من البرجوازية التقدمية ويرغب في اتخاذها حليفاً للبروليتاريا الثورية ، ولكن بريخت يرفض ذلك . توصل بريخت ولوكاتش الى نتائج مختلفة في غرض واحد هو الكفاح ضد الفاشية ، فلوكاتش يطالب بالتراث الثقافي البرجوازي من أجل الطبقة العاملة ، وبريخت لا يريد هذا التراث مهما غلا الثمن . لاحظ بريخت على آثار لوكاتش فقدانها كل اندفاع وكل اسهام ثوريين . ونظر لوكاتش الى بريخت على انه صوري ، فأجابه بريخت بأن خطيئة الصورية انما يقترفها بالحري ناقد لا يرضى بأن يحكم على الأدب الا بحسب بعض المعايير التي يستمدها من الأدب .

الروائي في العصر الفائت . يدين لوكاتش فترة الانحطاط البرجوازي التي تطبع بطابعها آثار جويس ، كفكا ، وغيرهما ، ويشمل بادانته الآثار المتوحاة من تقنياتها ، وكان بريخت على حق حين حسب انه مقصود بهذه الادانة ، فهو يرى أن تقنياتها الادبية الناشئة عن حاجات عصرنا وآماله قد تصلح لخدمة القضايا كلها بدل الاندماج في المضمون ، ففي مسائل الشكل لا يجوز أن نسرف في الكلام كيفما اتفق باسم الماركسية ، ان ذلك ليس بماركسي . وأخيراً يسلم لوكاتش بوجود واقعية خاصة ببريخت فريدة من نوعها .

وإذا عدنا الى المناظرة بين لوكاتش واوتولت ، لوجدنا أن لوكاتش يعارض سياسة الصفحة البيضاء في الأدب ويذود عن تراث العهد البرجوازي ، ويؤكد بقوة أن الأدب البروليتاري لا يمكن له أن يستغني عن هذه الدروس . ولا يرى أي مبرر لقبول رأي اوتولت القاضي بأن من السابق لأوانه الكلام عن تراث مادامت البرجوازية حية تماماً ، بل بالعكس يرى لوكاتش بأنه لو صح هذا الدليل لامتنع على ماركس ولينين وانجاز تصور المادية الجدلية المنبثقة عن الجدل الهيجلي . ولذلك فالثورة البروليتارية تتم وتكمل الثورة البرجوازية .

ويأخذ لوكاتش على الأدب السوفيتي اقتصاره على انسان جديد يتيح له انتصار الاشتراكية أن يخضع المادة لإرادته ، ولكن هذا يقف عند حدود التأكيد عاجزاً عن إعطاء صورة شعرية عن المادة . ويثور بعنف على طريقة الملاحظة المحضة والوصف الخارجي الصرف الذي ساد بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ لدى الكتاب السوفيت . ومن أجل الاحتفاظ بصيغة ماركسية لانتقاده يحتمي وراء القانون الماركسي الشهير : قانون النمو المتفاوت ، فيوازي بين ازدهار الاقتصاد في الاتحاد السوفيتي وبين ركود الأدب .

وبعد أن تم النصر على الفاشية ، انيطت بجدانوف ، معاون ستالين ، مهمة تطهير الحياة الثقافية السوفيتية من شائبة كل تأثير غربي . وحددت لجنة الحزب المركزية سمات الواقعية الاشتراكية . وقد قام جدانوف بالمهمة خير قيام .

وقد انهى لوكاتش هو نفسه مطأطأ الرأس . فقام بنقد ذاتي عام ١٩٤٩ بحجة أن اعداده لم يكن كافياً للتحدث عن الأدب السوفيتي ببحث ذي صفة علمية ؛ ويأمل أن يصحح أخطـــاءه . غير أن إعادة طباعة آثار لوكاتش وضمنها « الواقعية الروسية في الأدب العالمي » سنة ١٩٦٤ يطالعنا بمفاجأة . ففي نهايتها - والسم في النهاية - نجد تقريراً عن كتاب (سولجنيتسن) « نهار في حياة ايفان دنيسوفيتش » يقول فيه لوكاش « انني وأنا أضيف الآن إلى دراساتي القـــديمة للأدب السوفيتي دراسة جديدة . فاني اتبع خط نشاطي السابق في هذا الميدان » . وعند ذلك نجد أن انحيازه الموقوت إلى الستالينية لم يكن سوى عارض طارىء ، فقد استعاد النقد الأدبي عنده سيرته السوية بعد موت ستالين . فليس من الممتنع أن نرجع مختلف العروض المتعاقبة التي تحدث بها لوكاتش عن الواقعية إلى مذهب واحد مشترك رغم تنوع تأويلاته التي لاتعكس نوسانات عصر من العصور بين ماض برجوازي ومستقبل اشتراكي وحسب ؛ بل تعكس أيضـــاً خصومات انســـان تتناهبه اوامر العمل السياسي والوفاء الذي ينوي الحفاظ عليه لذوقه وفكره .

تقع الواقعية الحقيقية في نظر لوكاتش بين حدين زائفين « حد انحطاط برجوازي ، خال من أي منظور ؛ وحد رومانتيكية ثورية مزعومة » . ويتيح له هذا التقسيم رفض الانحطاط البرجوازي والتعفن الستاليني . ولكن هذا التقسيم كان مضمراً في مفهوم الكلية التاريخية والديالكتيكية الذي يمثل المنطق الأساسي لفكره .

فن تفسخ العالم الرأسمالي تنشأ الطليعة في الأدب وهي تستند الى انحلال مزدوج يصيب الانسان والعالم . والطليعة إذ تعجز عن دمج الانسان في محيطه الاجتماعي والسياسي ، تصطدم بمقولة الامكان . وعلى الرغم من العلاقة الوثيقة بين الامكان والواقع ، فان الطليعة لاتبلغ الواقع لأنها تجهل نشاط البشر الواعي الذي يجعل الممكن ناجعاً . ولذلك تبقى عاجزة ، وتوسع الامكان الى اللانهاية . وعلى أي حال هناك انحرافان وهما : انحراف المدرسة الطبيعية التي تستعذب

الشاذ ، والانحراف الذاتي النزعة الذي يقود الى الأدب اللاواقعي . وبينهما سمة مشتركة هي الاعتقاد بالسمة المتغيرة للواقع الموضوعي .

وترتبط الرومانتيكية الثورية تبعيــــة بالطليعة . وهي تتيح للارادة الذاتية ان تهب الواقع معنى وحركة تعسفيين في حين أن من الواجب استخلاص هذا المعنى وهذه الحركة من الواقع ذاته . فالأدب عندها أدب زينة فقط .

أما الواقعية الاشتراكية فإنها تقع بين أدب الطليعة وبين الرومانتيكية الثورية ، وهي ليست الأكاديمية السوفيتية الجديدة التي اختلست هـذا الاسم ، بل بالنظر إليها من زاوية النظام الاشتراكي فإنها تتيح تسجيل اعمال فردية لا في الواقع ذاته وحسب ، أي في الحاضر ، بل في منظور الواقع المتحرك ، أي في المستقبل أيضاً . وهذه الواقعية الاشتراكية هي المرحـــلة العليا من الواقعية الانتقادية ، والفرق بينهما هو رؤية العالم بالمنظار الاشتراكي . فماهية الواقعية الاشتراكية كامنة في الشعور المستقيم ، ولكنه ليس شرطاً كافياً ، وان كان لازماً لأن الابداع الأدبي بالمعنى الصحيح يخضع لقوانين تقع خارج كل شعور موجه . ويمضي لوكاتش إلى القول بأن الشعور ، حتى الشعور المثالي ، لايعارض البتة إبداع آثار واقعية . هكذا يستعجل لوكاتش النهوض بعد ركوعه أمام الواقعية الاشتراكية ليعود الى الواقعية الانتقادية التي كانت الموضوع المفضل لدراساته طوال حياته .

وبالنسبة للشعور فهو كما يقول لوكاتش « مرآة أكثر مما هو عاكس » . مخالفاً بذلك نظرية لينين في المعرفة التي تقول أن الشعور انعكاس الواقع الموجود خارج الفكر الانساني . ولكن لوكاتش لايكتفي بهذه الصيغة الجدلية التي تصبغ علاقة الشعور بالواقع لأن علم الجمال عنده يفلت من أي تحديد وحيد الجانب كلما انطوى النشاط الفني بالتعريف على قدر أكبر من اتخاذ موقف شخصي ازاء الواقع المزمع تمثيله .

إن علم الجمال الماركسي يطابق أفضل التقاليد الأدبية بنظر لوكاتش . والفارق الوحيد بينهما في أن علم الجمال الماركسي يتجاوز التجريبية التي نجدها عند

النظريات الجمالية السابقة بدرجات متفاوتة . إذ أنه استجلى استجلاء كاملاً الجهود التي بذلتها هذه النظريات للاحاطة بالواقع .

فما هو الواقع ؟ يلجأ لوكاتش لتعريف طبيعة الواقع إلى احدى مقولات الجدل المادي الأساسية ونعني مقولة العلاقات التي تربط الماهية بالظاهرة . فمن جهة أولى تلتقي العلاقات الجدلية بين الماهية والظاهرة في المذهب الجمالي اللوكاتشي بعد أن يبلغ تنوعها وتوسيعها اللانهاية . ومن جهة ثانية ، يلحف لوكاتش بوجه خاص على وحدة الماهية والظاهرة . إن الرغبة في اعادة الكلية تجعله يقول أن على كل فن كبير « أن يعطي الواقع صورة يذوب فيها تعارض الظاهرة والماهية » . على هذه الصورة يلتقي لوكاتش من جديد مع علم الجمال الكلاسيكي الذي يرى بحسب تعاليم أرسطو أن على الأثر الفني أن يكون « عضوياً » ، ولكن تجليه سيكون تدريجياً .

ولوكاتش يميز بين الانعكاس العلمي الذي يقدم صورة مجردة عن العالم وبين الانعكاس الفني الذي يمثل الواقع بالتفرد إليه عن طريق تخيله .

وعلى كل ذلك فان الآراء السياسية لمؤلف من المؤلفين ليست بالضرورة هي الآراء المستخلصة من آثاره .

وقد خص لوكاتش أهم تحليلاته الأدبية اولئك الذين يعتبرهم من أكابر ممثلي الواقعية الانتقادية ، مثل توماس مان ، الذي تنفرد آثاره بجدارة خاصة وهي أنه يعالج بسعة استثنائية كافة المشكلات الداخلية في المجتمع البرجوازي .

ـــ خاتمة ـــ

علم جمال ماركسي

ان التقدير الاجمالي لآثار لوكاتش يتعلق بالضرورة بالوضع السياسي والفلسفي لمن ينطق به . إن المثقف اليساري يميل إلى اعتبار لوكاتش حصناً واقياً

من العقائدية الماركسية . أما الرجل الحزبي الذي حمل على أن يسيء الظن براوغة كاتب لم يتردد سنة ١٩٥٦ في الاشتراك بالثورة المجربة المضادة ، سيلحف بوجه خاص على تحريفية لوكاتش . ويقيم آرفون لوكاتش في الكتاب فيقول :

« ونحن سنكون من الأدعياء إذا حاولنا الذود عن الفكر اللوكاتشي . فبقدر انحساء الحوادث السياسية العارضة التي أظلمت فكره بصورة موقوتة فان هذا الفكر يفرض نفسه فرضاً على أنه من أثمن شواهد عصرنا . ولا ريب في أن هذا الفكر سيبقى حياً زمناً طويلاً باعتباره البرهان الساطع على تطبيق المادية التاريخية في علم الجمال . ويرجع الفضل إلى لوكاتش بأن جعل الأدب المعروف خير معرفة يصبح من جديد موضوع بحث ...

... وبالمقابل تبدو محاولته اقامة علم جمال ماركسي للأدب على أنها أنأى تماماً من أن تفوز بقبولنا . وقد بدأ جورج لوكاتش بتضييق حقل الأدب ... أضف إلى ذلك أنه لا يأخذ بعين الاعتبار الحركية الخاصة بالمجتمع الرأسمالي والتي تقود بالضرورة إلى حدوث تغير في الذوق والتعبير ... واذ يرى جورج لوكاتش الأشكال التقليدية لعلم الجمال وقد غزاها ، بل أغرقها قلق العصور الحديثة ، فانه لا يكتشف في ذلك امكان ولادة أشكال قادرة على الاستجابة لصدى تطلعات جديدة ، بل سيستعيض عن هذا بترجيح جانب الانكماش والبقاء في علم جمال لم يكد يتغير منذ ارسطو ...

ثم يذكرنا بقول برتولد بريخت معرضاً بلوكاتش (ولكنهم هم أنفسهم أسوأ الصوريين) .

ان علم الجمال الماركسي علم يتحلى بسداد استثنائي عندما يتناول استخلاص فلسفة التاريخ من الأدب على نحو لاحق ، ولكنه يظل عاجزاً عن العصر ؟ بناء نظرية أدبية على نحو قبلي .. »

وفي النصف الثاني من الكتاب اختار هنري آرفون نصوصاً من آثار لوكاتش ، وهذه النصوص من كتب لوكاتش التالية : « التاريخ والوعي الطبقي» ، « لينين » ، « الدلالة الراهنة للواقعية الانتقادية » ، « مشكلة الواقعية » ، « تحطيم العقل » ، « كارل ماركس وفريدريك انجلز باعتبارهما مؤرخي أدب » ، « الرواية التاريخية » ، « العب واسبابه العميقة » ، « هنريك هاينه باعتباره شاعراً وطنياً بين الواقعيين الألمان في القرن ١٩ » ، « بلزاك والواقعية الفرنسية » ، « التقدم والرجعيـــة في الأدب الألماني » ، « توماس مان » .